

نتائج جوه الصقلي

قائد المعزدين بالله الفلمي

تأليف
الدكتور على إبراهيم حسن
المفتش الأول للمواد الاجتماعية
بوزارة التربية والتعليم



ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

اهداءات ٢٠٠٠

المرحوم أ.د. فريد شافعي
أستاذ العمارة الإسلامية - القاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قائد المعزدين بالله الفاطمي

تأليف
الدكتور علي إبراهيم حسن
المفتش الأول للمواد الاجتماعية
بوزارة التربية والتعليم



ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
٩ شارع عدلي بالقاهرة

هذا الكتاب نال به المؤلف درجة ماجستير في التاريخ الإسلامى من جامعة القاهرة

الطبعة الثانية ١٩٦٣

طبعة السعادة
١٢ ش الجزارى - القاهرة
ت : ٩٠٧٣٧٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تصدير

أناح لي قياسي بتربس مراد التاريخ الاسلامى العام وتاريخ مصر
فيما قبل الفتح الفاطمى وفي العصر الفاطمى وفي عصر الأيوبيين والمماليك
كاستاذ للتاريخ الاسلامى في كلية دار العلوم وكلية الآداب بجامعة القاهرة
وبجامعة بغداد - إلى منابهة تحليل شخصية « جوهري الصقلي »

تناولت حياة جوهري الصقلي ، قائد المعز لدين الله الفاطمى ، بالبحث ، لما
لذلك القائد العظيم والفاخر الكبير من الأثر في تاريخ العالم الإسلامى عامة
وتاريخ مصر الإسلامية خاصة ، لاسيما وأنه هو الذى فتح بلاد المغرب وفتح
مصر وأقام سلطان الفاطميين في الشرق .

وإن عصر جوهري الصقلي لمن أهم عصور التاريخ المصرى ، لذلك كان
جوهري لا يقل أهمية عن عمرو بن العاص ، وأحمد بن طولون ، ومحمد بن طنج
الإخشيدي ، وصالح الدين الأيوبي ، والظاهر بيبرس ، وغيرهم من مشهورى
أمراء مصر وحكامها .

لذلك استقصيت كل ما يتعلق بتاريخ هذا القائد وآثاره ، واستطعت أن
أوضح الكثير من المسائل الغامضة في هذه الناحية من نواحي تاريخ
مصر الإسلامية .

وقد عنيت بدرس كل ما كتب عن نشأة ذلك القائد وموطنه الأصيل ،
والدور السياسى الذى قام به في تاريخ مصر : من ذلك تأسيس مدينة القاهرة
التي لا تزال حاضرة الديار المصرية إلى اليوم ، وبناء الجامع الأزهر ، ونشر
المذهب الفاطمى ، وفتح مصر والشام وفلسطين والحجاز ، وتوطيد دعائم
سلطان الفاطميين فيها ، وصد غارات القرامطة عن مصر ، وهزيمة افنديكين
ومن حالفه من القرامطة .

المؤلف

محتويات الكتاب

صحيفة

تصدير الكتاب ٣

الباب الأول

جوهري منذ ولادته إلى أن ولي فتح مصر

- جوهري قبل اتصاله بالمعز ٩
أصل جوهري ، ولادته ، بيته ، الحسين بن جوهري
جوهري منذ اتصاله بالمعز إلى أن فتح مصر ١٤
جوهري الصقلي ، جوهري السكاني ، تقلد جوهري الوزارة في بلاد المغرب ،
فتوحه في بلاد المغرب ، منحه لقب القائد ، توليته إمرة الجيوش
لفتح مصر .

الباب الثاني

استيلاء جوهري على مصر

- حالة مصر قبيل الفتح الفاطمي ١٨
مصر في عهد الإخشيد : ثروة مصر في عهده ، ضعف الخلافة العباسية
مصر في عهد كافور : أصل كافور ، قيامه بالوصاية على أنوجور وأبي
الحسن عليّ ابني الإخشيد ، ظهور الوحشة بينه وبين ولدي الإخشيد ،
استئثار كافور بالسلطة ، حالة مصر في أواخر أيامه ، حالة مصر
بعد وفاته
فتح مصر ٢٥
حملات الفاطميين الأولى على مصر ، حملة المعز على مصر ، صد كافور لها ،
المعز بعد العدة لفتح مصر ، تولية جوهري القيادة ، تقدير المعز لجوهري ،

صحيفة

توديع المعز له ، مسير الجيوش الفاطمية بقيادته ، وصول جوهر إلى برقة ، استيلاؤه على الأسكندرية ، مفاوضات الصلح بين جوهر والمصريين ، اضطراب أهل القسطنطينية ، بيان جوهر للمصريين ، استيلاؤه على القسطنطينية ، استئناف مفاوضات الصلح بينه وبين المصريين ، بيان جوهر الثاني ، تهمة المصريين جرهراً بالفتح ، دخول جوهر القسطنطينية ، جوهر ونعمة الفتح .

الباب الثالث

سياسة جوهر في مصر

فتح سورية ٣٩

استيلاء جعفر على الرملة ، استيلاؤه على طبرية ، مقابلته وفد دمشق ، استيلاء جعفر على دمشق ، قيام الأهالي بالثورة ، معاملة جند الفاطميين للأهالي ، جعفر وزعماء الثورة في سورية .

تهديد سلطان الفاطميين في سورية ٤٣

١ — القرامطة : سبب الحرب بين الفاطميين والقرامطة ، التحالف بين جعفر وأمير الرحبة الحمداني ضد القرامطة ، نشوب القتال بين الحسن وجعفر ، هزيمة جعفر .

٢ — أفتكين : أصله ، استنجاد أهل دمشق به ، دخوله دمشق ، اتحاده مع القرامطة لطرد الفاطميين ، إسناد قيادة الجيوش الفاطمية في الشام إلى جوهر .

صد جوهر غارات القرامطة عن مصر ٤٨

حملة القرامطة الأولى على مصر : مسير القرامطة إلى الرملة ، وصولهم إلى القلزم ، وصولهم إلى الفرما ، اعتراف مدينة تنيس بسلاطنتهم ، القرامطة في عين شمس ، تهديم القاهرة ، استعداد جوهر لقتالهم ، رجوعهم إلى القلزم ، قضاء جوهر عليهم ، موقف الإخشيديين .

صغيرة

رحلة القرامطة الثانية على مصر : كتاب المعز إلى الحسن زعيم القرامطة ،
رد الحسن ، استعداد المعز للقتال ، القرامطة وجلاؤهم عن مصر .
الدعوة الفاطمية في مصر ٥٣

(أ) قبل الفتح :

العوامل التي دعت الفاطميين إلى اختيار مصر مقراً للدعوة الشيعية
بدلاً من بلاد المغرب ، الحملات الفاطمية وأثرها في نشر المذهب
الفاطمي في مصر ، انتشار الدعوة الفاطمية في مصر في عهد الإخشيد ،
استقبال كافور دعاة الفاطميين .

(ب) بعد الفتح :

جوهر وإقامة الخطبة المعز : الدعوة الفاطمية في المساجد : في جامع
عمرو ، في جامع ابن طولون ، في الجامع الأزهر ، التعامل الفاطمية في
القصر الفاطمي ، داعي الدعاة .

النظام الإداري في مصر في ولاية جوهر ٦٣
سياسة جوهر العامة في مصر : قصر مناصب الدولة على المتشيعين ،
إقصاء جوهر السنين عن المناصب تدريجياً ، جباية الخراج ، الوزارة ،
القضاء ، الحسبة ، موقف جوهر إزاء سلوك المغاربة .

الباب الرابع

منشآت جوهر في مصر

تأسيس مدينة القاهرة ٧٤
العواصم الإسلامية في مصر قبل القاهرة : الفسطاط ، العسكر ،
القطائع . سبب إنشاء القاهرة ، تسميتها ، موقعها ، سورها ، ظاهرها ،
القصر المعزى ، أبواب القصر ، قصر العزيز ، بين القصرين ، أبواب
القاهرة : باب زويلة ، باب النصر ، باب الفتوح ، حالة مصر العامة في
عهد جوهر

٩١ ^{صحيفة} بناء الجامع الأزهر
 المساجد الجامعة في مصر قبل الأزهر : جامع عمرو بن العاص ، جامع
 العسكر ، جامع ابن طولون .
 سبب بناء الجامع الأزهر ، تسميته ، وصف الجامع الأزهر : مقصورة
 جوهر ، مقصورة الأمير عبد الرحمن كيتخدا ، أعمدة المقصورتين ،
 صحن الجامع الأزهر ، محراب جوهر ، محاريب الجامع الأزهر ، منبر
 الأزهر ، تحويل الأزهر إلى جامعة في عهد العزيز .

الباب الخامس

حياة جوهر في مصر بعد قدوم المعز إليها

٩٨ قدوم المعز إلى مصر
 خروج المعز من المنصورة ، استخلافه بالسكين على إفريقية ، وصوله
 إلى برقة ، دخوله الأسكندرية ، استقباله ، خطبته ، وصول المعز
 إلى الجيزة ، استقبال جوهر له ، وصوله إلى القاهرة ، دخوله القصر ،
 استقباله الأشراف والقضاة والعلماء ، هديتا جوهر وأبي جعفر مسلم
 المعز ، صلته في مصلى القاهرة ، هديتا المعز لجوهر ، صرف جوهر
 عن ولاية الأعمال العامة في مصر ، إسناد الأعمال إلى يعقوب بن كلس
 وهسلوج بن الحسن ، سبب صرف جوهر .

١٠٤ تثبيت سلطان الفاطميين في سورية
 خروج جوهر إلى سورية ، احتلاله الرملة ، ولاء أهل دمشق
 لأفتككين ، نزول جوهر بظاهر دمشق ، الحرب بينه وبين أفتككين ،
 هزيمة أفتككين ، مسير جوهر إلى الرملة ، تعريجه على عسقلان ،
 محاصرة القرامطة وأفتككين لعسقلان ، المفاوضات بين جوهر
 وأفتككين بشأن الصلح ، مرور جوهر تحت سيف أفتككين وريح
 الحسن ، عودة جوهر إلى مصر ، خروجه العزيز مع جوهر إلى الشام ،

١١٣

طلب العزيز المهادنة من أفتككين ، رفض أفتككين ، الحرب بين
القرامطة وأفتككين وبين العزيز ، هزيمة الحسن القرمطي وفراره ،
فرار أفتككين والقبض عليه ، أفتككين في مصر ، عفو العزيز عن
أفتككين وأثر جوهر في ذلك ، إكرام العزيز لأفتككين ، وفاة أفتككين

تقدير جوهر

الباب السادس

دولة الفاطميين التي أقامها جوهر الصقلي في مصر

- ١ - خلفاء العصر الفاطمي الأول ٣٦٢ - ٤٨٧ هـ ١١٩
- ٢ - خلفاء العصر الفاطمي الثاني ٤٨٧ - ٥٦٧ هـ ١٢٧
- ٣ - تخلص سلطان الفاطميين ١٢٩
- ٤ - سقوط الفاطميين ٥٦٧ هـ ١٣٢
- ٥ - تقدير الفاطميين ١٣٦
- مصادر السكتاب ١٣٩ - ١٥٢

الصور والخرائط

- ١ - خريطة اتساع الدولة الفاطمية ١٩
- ٢ - جامع عمرو بن العاص ٥٩
- ٣ - جامع أحمد بن طولون ٦١
- ٤ - خريطة القاهرة في عهد الفاطميين ٨٠
- ٥ - خريطة لاتساع مدينة القاهرة ٨١
- ٦ - الجامع الأزهر ٩٢
- ٧ - بعض عقود الجامع الأزهر - وهي من عهد إنشائه ١٢١
- ٨ - منارة جامع الحاكم ١٢٣
- ٩ - جامع الأقمر - الذي بناه الخليفة الأمر الفاطمي ١٢٧
- ١٠ - خريطة للدولة الفاطمية ١٢٩

الباب الأول

جواهر منذ ولادته إلى أن ولي فتح مصر

جواهر قبل اتصافه بالأمير:

إن للبيئة التي ينشأ فيها الشخص ويترعرع تأثيراً كبيراً في أعماله ،
وبدراستها يسهل الحكم على حياة الرجل مما يحيط به من المؤثرات ، لذلك يجب
أن نتكلم على جزيرة صقلية ، ، موطن جواهر الأصلي .
ولد جواهر بجزيرة صقلية ، إحدى جزر الدولة الرومانية ؛ فهو باعتبار
مولده رومي الأصل^(١) ؛ وكان العرب يطلقون على أهالي الدولة الرومانية
(الشرقية والغربية) اسم الروم .

وقد ظلت صقلية^(٢) ، موطن جواهر الأصلي ، تحت حكم الرومان حتى

(١) ذكر المقرئ (الخطاط ج ١ ص ٣٧٧) أن جوهراً «ملوك رومي رباه
المعزدين الله» . كذلك أطلق عليه ستانلي لين بول (The Story of Cairo p 117)
اسم «العبد الرومي»

(٢) صقلية : بثلاث كسرات وتشديد اللام ، والياء أيضاً مشددة . والبعض
يقول بالسين . وأكثر أهل صقلية يفتحون الصاد واللام . وهي من جزائر البحر
الابيض المتوسط ، بينهما وبين افريقية مائة وأربعون ميلاً . وهي جزيرة خصبة
كثيرة البلدان والقرى ، وبها نحو ثلاث وعشرين مدينة وثلاثة عشر حصناً . وبها
جبل النار الذي يزعم الروم أن كثيراً من الحكماء الأولين كانوا يدخلون إلى الجزيرة
لمشاهدة عجائبه واجتماع النار والثلج فيه ، وقيل إنه كان في هذا الجبل معدن الذهب ،
وقد سماه الروم جبل الذهب . وحاضرة هذه الجزيرة مدينة بلو ، ومن أكبر مدنها
الحالصة . ياقوت معجم البلدان ج ٥ ص ٣٧٣ — ٣٧٦ .

(١ — جواهر)

فتحها الأغالبة^(١) سنة ٢١٢ هـ (سنة ٨٢٧ م) على يد أسد بن الفرات قاضي القيروان ، وذلك في عهد المأمون . ويحدثنا ياقوت^(٢) أن أسداً فتح هذه الجزيرة على رأس تسعمائة فارس وعشرة آلاف راجل . وكانت ولاية القضاة لأمرة الجند مألوفة عند المسلمين ؛ فطالما قادوا الجيوش وفتحوا كثيراً من البلاد ، وخرجوا في الغزوات مابين شامية وصائفة إلى بلاد الدولة الرومانية الشرقية ، التي كانت في عداوة مستمرة مع المسلمين بحكم الجوار فقد ولى القاضي يحيى بن أكرم قيادة الجند في عهد المأمون لقتال البيزنطيين .

وقد أسلم أكثر سكان جزيرة صقلية على أثر هذا الفتح ، وبنيوا بها كثيراً من المساجد ودور العلم . وكان للرحالة من المسلمين معرفة تامة بجزيرة صقلية مهد جوهر . فقد ذكر لنا ياقوت أن أبا الحسين بن يحيى بن الفقيه وصفها في كتابه « تاريخ صقلية » وصفها دقيقاً مسمياً ، فتسكلم عن جبالها وبراكينها ومضايقها ومعادنها وثمارها وفواكهها ، وما بها من الأبقية والحصون والآثار . كذلك وصفها ابن حوقل الذي رآها سنة ٣٦٢ هـ ، وهي السنة التي وصل فيها المعز لدين الله الفاطمي إلى القاهرة واتخذها حاضرة لدولته ، وكتب عنها كتاباً سماه « محاسن أهل صقلية » وذكر من بين مدنها الكبيرة بلرم والخاصة ، كما قال أن عدد ماشيده المسلمون فيها من المساجد يزيد على الثلاثمائة . ومن ذلك نقف على مدى انتشار الإسلام في هذه البلاد وتمكنه من نفوس أهلها . ووصف هذه الجزيرة أيضاً الشريف الإدريسي المتوفى سنة ٣٦٩ هـ (سنة ١٢٥١ م) ، والذي شاهد كثيراً من ممالك العالم

(١) أسس هذه الدولة إبراهيم بن الأغلب الذي أقطعه هارون الرشيد شمال افريقية في سنة ١٨٤ هـ (سنة ٨٠٠ م) ، فوليا هو وأولاده من بعده إلى سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٩ م) .

Stanley Lane-Poole: The Muhammadan Dynasties p. 36

(٢) معجم البلدان ج ٥ ص ٣٧٤

المختلفة. (١) وقد أهدى لروجر الثاني ملك صقلية كرة أرضية من الفضة رسمت عليها البحار والقارات .

وقد صادفت اللغة العربية في تلك البلاد جواً صالحاً ، كما وجد الدين الإسلامى مرعى خصيباً بين أهل صقلية . فقد انتشرت هذه اللغة في تلك الجزيرة وأصبحت لغة التخاطب فيها ، واللغة الرسمية للبلاد ، وترجمت في هذه الجزيرة أهم مؤلفات أفلاطون وأرسطو إلى اللغة العربية ، كما انتشر الشعر العربى بين أهلها ، وبخاصة المعلقات السبع (٢) وغيرها من القصائد العربية . وكان لما أخذه رودجر الزماندى عن العرب من المثل العليا للفرسية أثر كبير في ارتفاع شأن أسرته . أضف إلى ذلك ما أخذه عنهم من النظام الإدارى واستعانتهم بالموظفين المسلمين في إدارة شئون دولته (٣) .

ويعتبر العصر الذى سادت فيه الثقافة العربية في هذه الجزيرة هو العصر الذهبى لها ، ذلك العصر الذى بذت فيه صقلية جميع ممالك أوروبا من حيث الحضارة والمدنية . وكان من أثر انتشار اللغة العربية أن أصبحت لغة النقوش التاريخية في هذه البلاد ، حتى كان الملوك من الزماندين يجيدون التسكلم بها . وقد أفسحت اللغات الإغريقية والعربية والفرنسية الطريق إلى اللهجة الإيطالية

(١) كتاب نزهة المشتاق في ذكر الأماصار والأقطار والبلدان (رومة سنة ١٥٩٢)

ذكر المقرئى أن جميع البلاد التى ذكرها الإدريسى كانت مكتوبة على ستور حجرية بالقصر الفاطمى في القاهرة . الخطط ج ١ ص ٤١٥ -

(٢) كان هند العرب في الجاهلية أسواق للأدب يتناشد فيها الشعراء القصائد العصماء أمام المحكمين من شعراء العرب . فكانت القصائد التى يحكم لها بالسبق تكتب بماء الذهب وتعلق على جدران السكينة تكريماً لأصحابها وإشادة بذكورهم بين قبائل العرب المختلفة ، وقد بلغ مجموع هذه القصائد حتى ظهور الإسلام سبعاً .

ويرجع السبب في ذلك إلى أن الفتح الزمانى قد عبر الطريق للمهاجرين من إيطاليا ، وبخاصة للزمانيين^(١) .

وكان من الطبيعي أن تؤثر هذه البيئة الإسلامية في نشأة جوهر ، فيشبع على الإسلام متمسكاً بأهدابه ، مثقفاً ثقافاً عالياً بفضل انتشار اللغتين العربية واللاتينية وغيرهما من اللغات السائدة في هذه البلاد ، ويأخذ بنصيب كبير من الحضارتين العربية والرومانية . وكان لتلك الثقافة أكبر الأثر فيما عرف به جوهر من حسن السياسة والمهارة الحربية . ولم تلبث هذه الحضارة أن انتشرت بين الفاطميين ؛ فقد كان الخليفة المعز مثقفاً يجيد عدة لغات : منها الإغريقية والصقلية ، كما كان ذا ولع بالعلوم ودراية بالأدب ، معروفًا برجاحة العقل وحسن التدبير^(٢) . ومن ثم اختار رجال دولته من بين المغاربة وأهل صقلية من اشتهروا بالحزم والكفاية والثقافة العالية .

لم يحفظ لنا التاريخ لسوء الحظ شيئاً ذا غناء عن بيت جوهر وعن أبيه وأمه وأخوته وغيرهم من ذوى قرباه ، ولا عن كيفية اتصاله بالمعز ، وإنما هي أخبار مبثورة لا تمثل لنا حياة هذه الأسرة التى نشأ بها جوهر تمثيلاً صحيحاً واضحاً .

وليس لدينا من المصادر ما يسمح لنا بالوقوف على السمة التى ولد فيها جوهر بالضبط ، اللهم إلا ما ذكره ابن زولاق من أنه سأل الشريف أبا جعفر مسلم عند ما عاد إلى القسطنطينية ، بعد مقابلته له ومفاوضته إياه بشأن

(١) Encyclopaedia Britannica, Encyclopaedia of Islam
Sicily, S . V.

(٢) Stanley Lane—Poole : The Story of Cairo, p. 116

الصلح سنة ٣٥٨ هـ . عن سنن جوهر فقال : د نيف وخمسون سنة^(١) . وعلى ذلك يكون جوهر قد ولد بين سنتي ٣٠٥ هـ ، ٣٠٧ هـ . غير أن هذا يتعارض مع ما ذكره المقرئ من أن جوهر قد توفي سنة ٣٨١ هـ بعد أن نيف على الثمانين . ولو أخذنا بهذه الرواية لسكانت ولادة جوهر بين سنتي ٢٩٨ هـ و ٣٠٠ هـ^(٢) . ونحن نميل إلى ترجيح الرواية الثانية لأنها قد وردت على لسان جوهر نفسه . فقد ذكر المقرئ أن جوهر قال لابن عمار في سنة ٣٨١ هـ ، وهي السنة التي مات فيها جوهر ، لقد نيفت على الثمانين ،^(٣) . والنيف - على ما ذكره صاحب المصباح - هو من واحد إلى ثلاثة . بينما لم تعد الرواية الثانية أن تكون تقديراً تقريبياً لسن جوهر من أبي جعفر مسلم .

ولم يذكر لنا المؤرخون شيئاً عما إذا كان جوهر قد ولد مسلماً أو أسلم بعد ولادته . والذي يغلب على الظن أنه ولد مسلماً . فقد دخل الإسلام جزيرة صقلية سنة ٢١٢ هـ ، وذلك قبل أن يتصل جوهر بالمعز بأكثر من قرن . أضف إلى ذلك أن أباه كان يدعى عبد الله ، وهو اسم من الأسماء الشائعة بين المسلمين . وليس بعيداً أن يكون عبد الله هذا قد بادر إلى الإسلام الذي كان منتشراً في هذه الجزيرة منذ زمن بعيد ، وأن جوهر قد شب على دين أبيه أما أجداده فلم ينقل لنا التاريخ شيئاً عن إسلامهم ؛ وكل ما ذكره عن سلسلة نسب جوهر أنه أبو الحسين جوهر بن عبد الله . ولعل سكوت المؤرخين عن استقصاء ذلك النسب يرجع إلى أنهم لم يعثروا على شيء في ذلك . فقد كان جوهر مولى من الموالى . وقلما يتدى المؤرخون إلى الوقوف على صحة نسب هؤلاء الموالى ، وذلك لعدم عناية الموالى أنفسهم بتدوين أنسابهم . أضف إلى ذلك أن هذا النسب كثيراً ما يكون عرضة للغموض والإبهام .

(١) المقرئ : اتماظ الحنفاس ٧١

(٢) الخطاط ج ١ ص ٣٨٠

(٣) أحد قواد المغاربة

وكان لجوهر ولد يدعى الحسين ويكنى بأبي هبدا الله . وكان ذا مواهب
فذة ومقدرة حربية فائقة كما كان أبوه . وكان يلقب في حياة أبيه « بالقائد
ابن القائد » (١) .

جوهري منذ اتصاله بالمعز إلى أنه قنص مصر :

شب جوهر في حجر الدولة الفاطمية ببلاد المغرب بين موالى المعز .
وبعدنا المقرئ (٢) أن المعز قد اختص جوهر أ من بين مواليه وكناه بأبي
الحسين . وقد قر به الخليفة الفاطمي لما توسمه فيه من الاخلاص للدين والمواهب
الفذة والثقافة الواسعة التي أخذ منها بأوفى نصيب .

ويطلق المؤرخون على جوهر « جوهر الصقلي » نسبة إلى موطنه الأصلي
« صقلية » ويظهر لنا أن كثيرين من أهل هذه الجزيرة قد انضموا تحت لواء
الفاطميين وحاربوا في صفوفهم بعد أن تأسست دولتهم في بلاد المغرب سنة
٢٩٦ هـ ، بدليل ورود لفظ « الصقلية » في كثير من المصادر التي يعتمد
عليها في تاريخ الفاطميين . وقد شاع إطلاق لفظ « الصقلية » على سكان جزيرة
صقلية ؛ وهو خطأ واضح ، لأن « الصقلية » من الجنس السلافي ، ومنه
الروس والصرب والبلغار وغيرهم من أهالي البلاد المحيطة بالبحر الأسود .
وبذلك كانت التسمية الصحيحة لأهل جزيرة صقلية هي « الصقليين » لا
« الصقلية » .

ظل جوهر يتدرج في سلك المناصب ببلاد المغرب حتى انخذه المعز في
سنة ٣٤١ هـ (٩٢٣ م) كاتباً له . ولقب منذ ذلك الحين « بجوهر الكاتب » .

(١) المقرئ ج ٢ ص ١٤

(٢) الخطط ج ١ ص ١٥٢

ولابد أن يكون المعز قد خبر جوهرًا وعرف ما امتاز به من الصفات والمزايا قبل أن يلى الخلافة بزم طويل ، إذ يعد كل البعد أن يطفر جوهر بهذه السرعة إلى هذا المنصب الخطير ، وأن يتخذ المعز كاتباً له سنة ٣٤١ هـ وهى السنة التى ولى فيها الخلافة . فقد كانت الكتابة إحدى المناصب العالية التى كان الخلفاء لا يسندونها إلا لمن أنسوا فيهم الكفاءة والقدرة على معالجة الأمور ، كما كانت الخطوة الأولى إلى الوزارة إذا ما حاز صاحبها رضا الخليفة .

وكان جوهر عند حسن ظن الخليفة به ، فرقاه إلى منصب الوزارة سنة ٣٤٧ هـ . ولا فرو فقد كان جوهر كاتباً بليغاً ، كما كان عفا جم الأدب فى كتابته . يتبين ذلك فى عهد الصالح الذى كتب به المصريين ، ذلك العهد الذى سنأتى على ذكره فى الباب التالى . وقد كان لهذه الصفات أبعاد الأثر فى تهدئة خواطر المصريين وتأليف قلوبهم عقب الفتح الفاطمى .

ويحدثنا ابن خلدون^(١) أن المعز بعث جوهرًا (صفر سنة ٣٤٧ هـ) ، لفتح ما بقى من بلاد المغرب ، على رأس جيش كثيف يضم كثيراً من رجالات المغاربة ، ومن بينهم زيرى بن مناد الهنستماجى الذى استخلف المعز ابنه بلسكين على بلاد المغرب عند ما رحل إلى مصر فى سنة ٣٩٢ هـ . سار جوهر إلى تاهرت^(٢) فاستولى عليها ، ثم استأنف السير إلى مدينة فاس فناجز

(١) ج ٢ ص ١٠٢

(٢) تاهرت (أو تيمرت) اسم لمدينتين متقابلتين استولى عليهما أبو عبد الله الشيعى سنة ٢٩٦ هـ ، بعد أن ملكهما بنورستم زهاء مائة وثلاثين سنة . وكان بها أسواق عامرة وحمامات كثيرة . وكان ميمون بن عبد الوهاب بن رستم بن بهرام (وبهرام مولى عثمان بن عفان) صاحب تاهرت رأس الأباضية وأمامهم ، وكانوا يسلمون عليه بالخلافة .

أهلها مدة ، ثم تركها لاستعصائها عليه . ثم يميم سجلماسة^(١) ، وكان قد قام بها رجل تلقب بالشاكر بالله وخاطبه الناس بأمير المؤمنين . فلما علم بدنو جوهر من المدينة هرب منها ، فطارده جوهر حتى قبض عليه وأسره . ثم أمعن جوهر السير في بلاد المغرب الأقصى ، يفتتح مدينة تلو مدينة حتى وصل إلى ساحل المحيط الأطلسي^(٢) . وقد أراد أن يبرهن للمعز إلى أى حد وصلت جيوشه في فتوحها ، فأمر أن يصاد من سمك المحيط . ثم وضع هذا السمك في قلال من الماء وبعثه إلى المعز ، وأعلمه أنه قد استولى على مامر به من المدائن والأمم وسلك ما هنالك من البلاد فافتتحها ،^(٣) .

ولما لم يتمكن جوهر من الاستيلاء على بلاد المغرب كلها ، لاستعصاء فتح فاس عليه ، عاد إلى هذه المدينة وعالج فتحها من جديد ، وقد تم له ما أراد ، ففتحها عنوة واستولى عليها ، وقبض على صاحبها وعلى صاحب سجلماسة ، ثم وضعهما في قفصين حملهما مع هدية إلى الخليفة المعز وهو في المهديّة .

وهكذا تمكن جوهر من توطيد الأمن في جميع أرجاء بلاد المغرب في أقل من سنة ، وإتمام الفتوحات التي بدأها أبو عبد الله الشيباني سنة ٢٩١ هـ (سنة ٨٩٦ م) ، فأخضع لسلطان المعز أهالي هذه البلاد ودانوا له بالطاعة والولاء . فلا عجب إذا عظم شأن جوهر عند المعز ، فاختره لقيادة الحملة التي أرسلها لفتح مصر ، ولقبه « بالقائد » .

(١) سجلماسة : مدينة بالمغرب الأقصى ، يجرى فيها نهران أصلهما واحد ، فإذا قربا من المدينة تشعبا إلى نهرين فيسلكانها شرقا وغربا . وتقع في سهل أرض سبخة حول أرباض كثيرة ، وتبعد عن القيروان بستة وأربعين فرسخا . وكان بناؤها سنة ١٤٠ هـ وفي سنة ١٦٠ هـ اتخذها بنو مدرار حاضرة ملكهم (البكري ص ١٤٨ - ١٤٩)

(٢) المقرئى : الخطاط ج ١ ص ٣٥٢

(٣) المقرئى : نفس المصدر والجزء ص ٣٧٨

وقد ذكر ابن خلسكان^(١) أن جوهرأ مرض وهو في بلاد المغرب مرضاً شديداً أشرف معه على الموت . فحزن المعز وعاده بنفسه في بيته، وهو شرف لا يناله إلا المقربون . وكان نفس المعز كئيفت تحذثه بأن مصر لن تفتح إلا على يد جوهر . فلما عاد من زيارته قال : « هذا لا يموت ؛ وستفتح مصر على يديه » . وقد تحققت نبوءة المعز ، فشفي جوهر من مرضه . وسرعان ما أعدت معدات الحملة وخرج المعز لوداعه ، وهو ما سنفصله بعد .

(١) ج ١ ص ١١٩ .

الباب الثاني

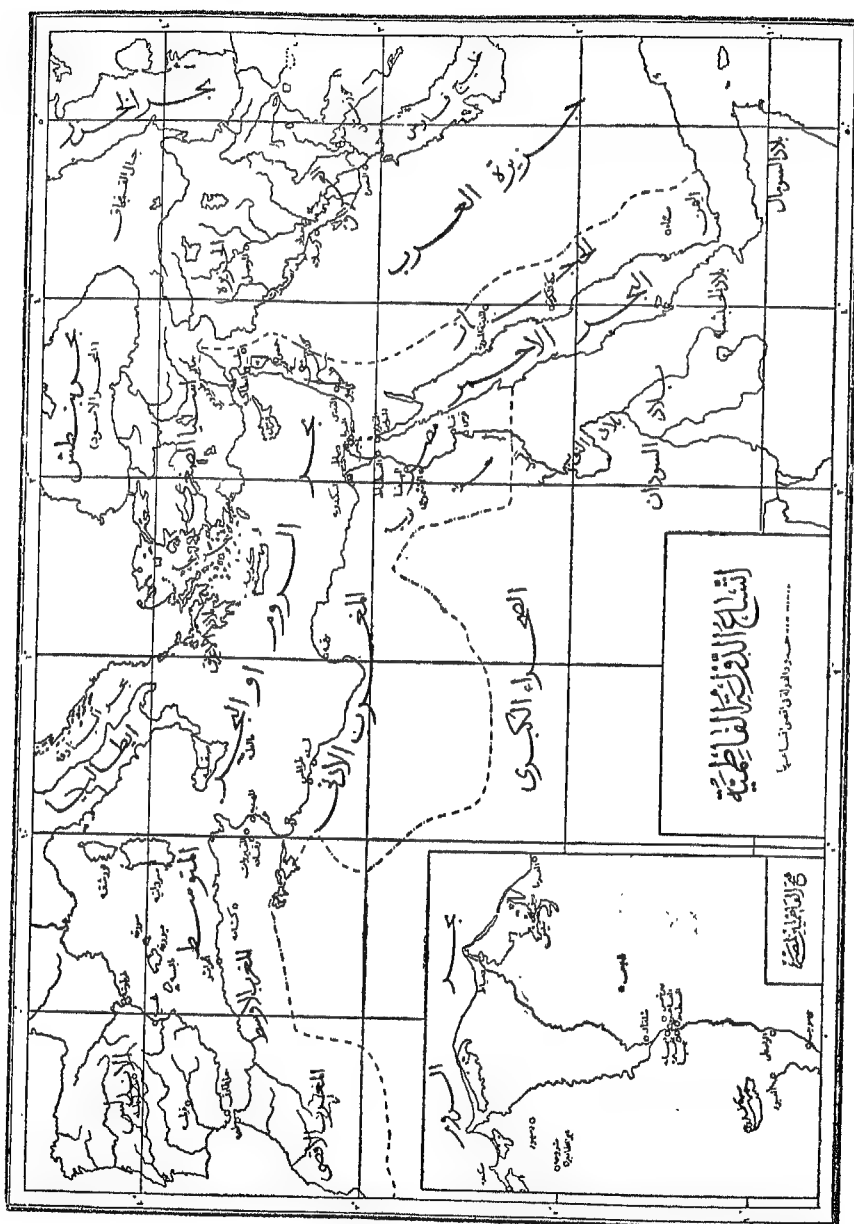
استيلاء جوهر على مصر

ماز مصر قبيل الفتح الفاطمي:

كانت مصر قبيل الفتح الفاطمي تحت حكم الإخشيديين منذ سنة ٣٢٣ هـ ، وظلت على ذلك إلى سنة ٣٥٨ هـ حيث فتحها جوهر قائد جيوش المعز لدين الله .

وقد أسس محمد بن طنج الإخشيد هذه الأسرة على أثر ولاية هذه البلاد للمرة الثانية سنة ٣١٣ هـ . وكانت مصر في عهده في طمأنينة وهدوء . وكان الأمن مستتباً ، والرخاء شاملاً ، والبلاد لانزال قوية بجندھا الذين كانت تدفع لهم رواتبهم بانتظام . أضف إلى ذلك قوة العباسيين الذين كانت مصر تابعة لهم تبعية اسمية . لذلك استطاعت مصر أن تقف في وجهه الفاطميين الذين جعلوا الاستيلاء عليها نصب أعينهم منذ خلافة عبید الله المهدي . وقد زاد كل ذلك في قوة الإخشيد حتى تمكن من صد الجيوش الفاطمية التي أغارت على هذه البلاد في عهد القائم بن المهدي سنة ٣٢٤ هـ .

وقد كانت الصلة بين الإخشيد والخليفة العباسي على خير ما يكون من الصفاء وحسن التفاهم^(١) . وظلت أواصر هذه الصلة قوية متينة إلى أن جاء ابن رائق لهرق الإخشيد عن مصر بأمر الخليفة . لهذا لانعجب إذا ثارت فائرة الإخشيد ، فكتب إلى نائبه في بغداد لاستطلاع رأى الخليفة الذي لم



يُحفل به ولم يرد عليه بشيء . وكان من أثر ذلك أن أمر الإخشيد بإلغاء الخطبة للخليفة العباسي وإحلال اسم الخليفة القائم الفاطمي محله . وهذا العمل — كما سنرى — يعتبر خطوة تمهيدية للاعتراف بسلطان الفاطميين .

على أن الدولة العباسية لم تلبث أن ضعفت في أواخر أيام الإخشيد إلى حد كبير . وذلك على أثر تنازع السلطة في بغداد بين توزون والبريدى اللذين كانا من قواد الأتراك . ومن ثم لم يجد الخليفة بداً من الاستنجاد بالإخشيد ، أفوى ولانه في ذلك العصر . وسار الخليفة إلى الشام ، فلقبه الإخشيد في مدينة الرقة^(١) وعرض عليه البقاء معه في الشام أو الذهاب إلى مصر . ودارت المفاوضات بين الإخشيد وتوزون الذي تعهد بحماية الخليفة ؛ فعاد الخليفة إلى بغداد ، ورجع الإخشيد إلى مصر . أما توزون فإنه لم يرع لعهده حرمة ؛ فقد سمل عين الخليفة وحبسَه ثم قتله^(٢) . وجاء بعد ذلك بنو بويه لنصرة الخليفة العباسي الذي لم يلبث أن أصبح العوبة في أيديهم .

مات الإخشيد في فلسطين في شهر ذي القعدة سنة ٣٣٤ هـ ودفن في بيت المقدس ، فخلفه ابنه الأكبر أبو القاسم أنوجور^(٣) وهو في الخامسة عشرة من عمره . وقد قام بتدبير أمره أبو المسك كافور .

كان كافور عبداً خصبياً مملوكاً لأحد أهالي مصر ، فاشتراه منه محمد بن طنج مؤسس الدولة الإخشيدية فيما بعد ، وكان إذ ذاك من كبار القواد . وقد ذكر السيوطي^(٤) أن الإخشيد اشترى كافوراً بثمانية عشر ديناراً ؛ وذكر

(١) بلدة واقعة بين العراق والشام .

(٢) أبو المحاسن ج ٢ ص ٣٠٧

(٣) أنجور أو أنوجور معناها بالعربية محمود على ما ذكره ابن خلكان (١ ص

٥٤٥) والسيوطي (ج ٢ ص ٣٧٣)

(٤) حسن المحاضرة (ج ٢ ص ٣٧٣) ، وابن خلكان (ج ١ ص ٤٣١) وأبو

المحاسن (ج ٢ ص ٣١٥)

المقريري^(١) أنه أرسل هدية لمحمد بن طنج ، فتوسم فيه الدكاء وأبقاه عنده ورد الهدية إلى صاحبها .

ولما آلت ولاية مصر إلى الإخشيد ترقى كافور في بلاطه ، فاختره الإخشيد من بين عبيده ومنحه ثقتة حتى جعله أنابك^(٢) ولديه أبي القاسم أنوجور وأبي الحسن على . ولا غرو فقد كان الإخشيد يرى في كافور النجابة والهمة ، حتى ذكر بعض المؤرخين أنه قال : والله لا ورث دولة ابن طنج إلا هذا العبد .

ولما تولى الإخشيد وعمل له ابنه أبو القاسم أنوجور قبض كافور على زمام الأمور في كافة البلاد الخاضعة لحكم الإخشيديين : وهى مصر والشام والحجاز وقد استهل كافور عهده بالقضاء على الثورة التى قام بها المصريون فى وجهه . أضف إلى ذلك ما أصابه من الفوز فى طرد أبى الحسن على الملقب بسيف الدولة الحداني من دمشق ، والخيولة بينه وبين المسير إلى مصر . وكان من أثر هذا الانتصار الذى دلت عليه هذه الغنائم التى استولى عليها المصريون فى هذه الحرب ، أن عظم شأن كافور ، فخاطبه عليه القوم « بالآستاذ » ، ودعى له على المنابر فى مصر والشام والحجاز^(٣) باسم أبى المسك^(٤) كافور ، تلك التسمية التى كناه بها الخليفة العباسى . وقد اكتسب محبة القواد وكبار رجال الدولة بما أغدقه عليهم من العطايا والهبات ، كما انبسطت يده فى كافة شئون البلاد^(٥) .

(١) الخطط ج ٢ ص ٢٦

(٢) أنا معناه بالتركية الأب وبك معناه الأمير ، أى أبو الأمير أو مربى الأمير

(٣) ذكر المقريري (الخطط : ج ٢ ص ٢٦) أن أهالى القسطنطين والرملة وطبرية

لم يدعوا للإخشيد قبل ٣٤٠ هـ .

(٤) أطلقت هذه الكنية عليه من قبيل التلميح والمشاكله ، لأن المسك أسود

اللون ، وكان كافور كذلك . وكانت الدعابة فى إطلاق لفظ كافور عليه ، لأن الكافور

أبيض وكان هو أسود اللون .

وكان من أثر ازدياد نفوذ كافور أن ظهرت الوحشة بينه وبين أنوجور ،
وعمل كل منهما على الإيقاع بالآخر . وانقسم الجند فريقين : الإخشيدية
والسكافورية . ومات أنوجور في ذى القعدة سنة ٣٤٩ هـ ، ولم يتجاوز التاسعة
والعشرين ، حتى ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن كافورا قد دبر أمر وفاته
بالسم . وقد أقام كافور أخاه أبا الحسن على بن الإخشيد وهو في الثالثة
والعشرين . ولم يكن لهذا الأمير الجديد مع كافور شيء . فقد استبد بالامر
دونه وعين له - كما عين لآخيه من قبله - أربع مائة ألف دينار في كل سنة (١)
ومنع الناس من الدخول إليه . ويحدثنا المقرئ أن أبا الحسن اعتل بعلة
أخيه ، وأنه مات كذا حرمانه من سلطانه الشرعية (المحرم سنة ٣٥٥ هـ) . وقد
حال كافور بعد وفاة أبي الحسن دون نعيم ابنه أحمد ، بحجة أنه غير صالح
للحكم أصغر سنه ؛ وبقيت مصر بغير أمير عدة أيام . وفي المحرم من سنة
٣٥٥ هـ أخرج كافور كتابا من الخليفة المطيع العباسي بتقليده ولاية مصر
والبلاد التي تحت سلطاتها . فلم يغير لقبه الأستاذ ، ودعى له بعد الخليفة
على منابر مصر والشام والحجاز ، وكان يدعى له قبل ولايته بعد الخليفة
والوالى (٢) .

ولم يكبد كافور يستولى على ولاية مصر سنة ٣٥٥ هـ حتى ارسل المعز
الفاطمي جيشاً لغزو هذه البلاد . فلما وصلت الجنود الفاطمية إلى الواحات ،
جهز كافور جيشاً طردهم وقتل منهم عدداً كبيراً . على أن كافورا قد أحسن
استقبال الدعاة الفاطميين الذين وفدوا عليه في بلاطه من قبل المعز يدعونه
إلى طاعته ، حتى كان من أثر ذلك أن مال إلى المذهب الفاطمي السكثيرون من
السكتاب والجنود الإخشيدية والسكافورية .

(١) أبو المحاسن ج ٢ ص ٣١٥

(٢) المقرئ : ج ص ٢٦ - ٢٧

من ذلك نرى أن فكرة تحويل السلطة من العباسيين إلى الفاطميين كانت قد اختتمت في نفوس المصريين . ولا شك في أن الحالة السيئة التي سادت هذه البلاد في السنين الأخيرة من حكم كافور قد ساعدت على زوال سلطان الإخشيديين عن هذه البلاد . فقد انتاب مصر البؤس والغلاء بدرجة لم ترها من قبل . وكان أشد تلك المحن أثراً انخفاض النيل الذي بدأ في سنة ٣٥١ هـ ، وما تبعه من انتشار القحط وتفشي الوباء . فاشتد الغلاء ونذر القمع ، وفشا الموت بحالة عجز معها الناس عن تكفين الموتى وعن موارثهم ، حتى قيل إنه كان يلقي بجثث الموتى في النيل لكثرتها^(١) . وقد ذكر ابن خلكان أن عدد الموتى بلغ ٦٠٠,٠٠٠ . يضاف إلى ذلك عجز كافور عن صد القرامطة الذين أغاروا على الشام سنة ٣٥٢ هـ (سنة ٩٦٣ م) ونهبوا حجاج مصر في طريقهم إلى مكة (سنة ٣٥٥ هـ) . وعدم استطاعته الدفاع عن مصر التي أغار عليها النوبيون حتى وصل ملكهم إلى اخميم ، وما كان من اضطراب الحكومة وعجز كافور عن دفع رواتب حرسه وغلبائه^(٢) فتسكروا له وثاروا عليه^(٣) .

توفي كافور في ٢٠ جمادى الأولى سنة ٣٥٧ هـ (٩٦٨ م) وهو في الستين من عمره ، بعد أن تولى أمر مصر والشام والحجاز زهاء إحدى وعشرين سنة ، ودفن في دمشق^(٤) . وقد ترك مصر في حالة يرثى لها من الفوضى والاضطراب . وكان المذهب الفاطمي في هذه البلاد قد بدأ ينمو ويطرد بين عدد كبير من المصريين . كل ذلك قد مهد الطريق أمام جوهر لفتح مصر وتحويلها من سلطان الإخشيديين إلى سلطان الفاطميين .

(١) المقرئى : الخطوط ج ٢ ص ٢٧

(٢) ذكر المقرئى أن عدد هؤلاء الغلبان بلغ ألفاً وسبعمائة

(٣) G. Wiet : Précis d'Histoire Musulmane de l'Egypte P. 31

Lane-Poole : The story of Cairo p. 103

(٤)

وكانت الدولة العباسية في ذلك الوقت قد بلغت درجة كبيرة من الضعف والانحلال . فقد سادها الاضطراب والفوضى ، وانهضت أطرافها ، واقطعت منها دويلاتها ، وثار عليها ولانها ، وكثرت الاغارة عليها من أعدائها ؛ وغدا الخليفة العباسي أشبه شيء بالعوبة في أيدي بني بويه (٢٣٤ - ٤٤٧ هـ ، ٩٤٥ - ١٠٥٥ م) ، وكانوا من الشيعة الغالين الذين استنجد بهم الخليفة لمعاونته وتخليصه من ظلم الأمراء . ولا غرو فإن سلطة الخليفة العباسي قد اضمحلت في ذلك الوقت ولم تعد تمثل إلا في الخطبة والسكة ، وذلك لاحتمفاظ الأمراء بسلطتهم السياسية لدى الأهاليين الذين كانوا يقدسون شخص الخليفة ويولونه احترامهم وتبجيلهم . وهذا ما حدا بسلطان بني بويه والسلاجقة إلى إظهار الخلفاء أمام الناس بمظهر القوة والقداسة الدينية وأن نفوذهم مستمد من الخليفة (١) .

بذلك لم يعد للخليفة من أمر تعيين الولاة شيء . فلما مات كافور اجتمع رجال البلاط في مصر وولوا أبا الفوارس أحمد حفيد الإخشيد عرش مصر ، وكان في الحادية عشرة من العمر (٢) واتفق أن جاء إلى مصر أبو محمد الحسن ابن عبيد الله أخى الإخشيد فارا من وجه القرامطة ، فأمره المهريريون على الجيش . فاستبد بالامر وقبض على الوزير جعفر بن الفرات واستولى على أمواله ثم عاد إلى الشام (٣) وقد ظلت هذه البلاد بعد رحيل الحسن ابن عبيد الله إلى الشام سنة ٣٥٨ هـ ، نحو من خمسة أشهر تحت إدارة ابن الفرات ، وصلت في أثنائها إلى حالة من الفوضى عجز معها هذا الوزير عن إقرار الأمن في نصابه وتخفيف ما حل بالأهاليين من المصائب والويلات (٤) .

Gibbou: Decline And Fall of the Roman Empire, VI. p. p. 54—55 (١)

(٢) ابن خلدان ج ١ ص ٤٥٧

(٣) ابن خلدان ج ٢ ص ٥٥ و ٦٥

Lanc—Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, p. 89—90

من هذا كله نرى أن حالة الضعف والبؤس التي وصلت إليها مصر ، وعجز العباسيين عن إرسال الجيوش لصد الأعداء عنها قد مهدا السبيل أمام المعز الفاطمي لفتح مصر ، ذلك الأمر الذي تم على يد جوهر القائد وهو ماسنيذنه في الفصل التالي .

فتح مصر :

عنى الفاطميون عناية خاصة بغزو مصر ، لأن ذلك يزيد في رفعة أملاكهم ولأن استيلائهم على هذه البلاد معناه امتداد نفوذهم على البلاد التي كانت خاضعة لسلطان الأخشيديين وهي الشام والحجاز ، ولاغرو فإن موقع مصر الجغرافي بين الشرق والغرب ، ووفرة ثروتها قد ساعدا على تحقيق أغراض الفاطميين من بث عقائد مذهبهم ، ونشر سلطانهم على البلاد الإسلامية في الشرق . لهذا لا نعجب إذا رأينا الخلفاء الفاطميين منذ خلافة المهدي يدأبون على امتلاك هذه البلاد فيرسلون الحملات البرية والبحرية لفتحها . فقد أرسل عبيد الله المهدي (٢٩٧ - ٣٢٢ هـ) أول الخلفاء الفاطميين ثلاث حملات لغزو مصر : الأولى في سنة ٣٠١ هـ ، والثانية في سنة ٣٠٧ هـ ، ولم تنته إلا في سنة ٣٠٩ هـ في حين ابتدأت الحملة الثالثة في سنة ٣٢١ هـ واستمرت حتى عهد القائم بن المهدي سنة ٣٢٤ هـ . وقد فشلت هذه الحملات الثلاث في الاستيلاء على مصر وضمها إلى سلطان الفاطميين ، لأن مصر كانت في ذلك الوقت من القوة بحيث استطاعت أن ترد عنها غارات الأعداء .

وقد انقطعت حملات الفاطميين على مصر في المسدة الباقية من خلافة القائم (٣٢٢ - ٣٣٤ هـ) وطوال عهد المنصور (٣٢٤ - ٣٣٤ هـ) . لأن العباسيين كانوا لا يزالون من القوة بحيث كان في استطاعتهم الدفاع عن مصر ورد الفاطميين عنها ، كما أن الثورات التي قام بها الخوارج في بلاد المغرب قد حالت دون تحقيق الغرض الذي كان يرمى إليه الفاطميون وهو فتح مصر .

(٢ - جوهر)

وأعظم هذه الثورات خطراً وأعظمها أثر ثورة أبي يزيد محمد بن كيداد ،
الذى قام بهتنة اشتد وقعها على الدولة الفاطمية فأوقعتها زهرة رجالها وجعلت
بيت مالها خلواً من الصفراء والبيضاء .

وقد ظلت الحال على ذلك حتى جاء المعز رابع الخلفاء الفاطميين (٣٤١ -
٣٦٥ هـ و ٩٥٢ - ٩٧٥ م) فأرسل جيشاً لغزو هذه البلاد ، فوصل إلى
الواحات . ولكن كافوراً الإخشيدى صده وحال دون تقدمه .

على أن ذلك لم يصرف المعز عن تنفيذ ما عزم عليه من فتح هذه البلاد .
وقد ساعده على ذلك استتباب الأمن في كافة أرجاء بلاد المغرب بعد إخماد
ثورة أبي يزيد ، ثم قيام الاضطرابات وانتشار الفوضى في مصر على أثر وفاة
كافور ، وضعف الخلافة العباسية وانشغالها بدفع البزنطيين عن بلادها ،
أضف إلى ذلك عطف المنتشيعين بمصر على الدعوة الفاطمية حتى راسلوا المعز
يطلبون إليه إرسال جيش لغزو هذه البلاد .

وقد أحب يعقوب بن كلس^(١) دوراً هاماً في توجيه نظر المعز إلى حالة
الضعف التي سادت مصر على أثر وفاة كافور .

(١) كان يعقوب يهودياً ، ولد في بغداد وصحب أباه وهو في صباه إلى الشام . ثم
جاء إلى مصر سنة ٣٣٤ هـ ، واتصل بكافور بعد أن أصبحت السلطة في يده في عهد
أنوجور وأبي الحسن على ابني الإخشيد فأحله كافور من نفسه على العطف والرعاية
لمساآنسه فيه من الهمة والنشاط والأمانة ، فعينه في ديوانه الخاص . ولم تزل
حظوته تزداد عنده حتى جعله على خزائن الدولة ، وقد أسلم في شهر شعبان سنة
٣٥٦ هـ فزادت حظوته عند كافور واستثار بذلك حسد الوزير جعفر بن الفرات ،
فحبسه ابن الفرات بعد وفاة كافور ، ولم يطلقه إلا بعد أن تدخل بعض رجالات
الدولة في الأمر وبعد أن بذل له ابن كلس الأموال . على أن ابن كلس لم يأمن على
نفسه البقاء مع هذا الوزير . فسار خفية إلى بلاد المغرب حيث اتصل بالمعز ودله
على رجوه ضعف مصر وحشده على النهوض بغزوها وضجها إلى أملاكه . وقد ظل
ابن كلس في بلاد المغرب حتى عاد إلى مصر سنة ٣٩٢ هـ مع المعز .

كان الاستعداد لفتح مصر قائماً على قدم وساق ببلاد المغرب منذ سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٧ م). فقد أمر المعز بإنشاء الطرق وحفر الآبار في طريق مصر، وأقام المنازل على رأس كل مرحلة، وجمع الأموال للقيام بنفقات هذه الحرب.

ولا غرو فقد كان المعز شديد الاهتمام بفتح هذه البلاد ومد نفوذه إلى الشرق. فلم يأل جهداً في إعداد جيش كثيف وتزويده بالعدد، حتى قيل إن عدد هذا الجيش كان يزيد على مائة ألف مقاتل من شجعان كتامة (من قبائل البربر) الذين أغدق عليهم المعز الأرزاق والعطايا حتى بلغت هذه الأموال — على ما ذهب إليه المقرئ — أربعة وعشرين مليون دينار.

ويتبين مبلغ اهتمام الفاطميين بفتح مصر وبسط نفوذهم على سورية وبلاد الحجاز من الخطبة التي ألقاها المعز على شيوخ كتامة قبل مسير هذه الحملة إلى مصر وفيها يقول: «ونحن محتاجون إلى نصر تكم بأبدانكم وحقولكم. واعلموا أنكم إذا لزمتم ما أمركم به، رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب بكم»^(١).

وقد رأى المعز في جوهر الرجل الذي يعتمد عليه في القيام بأعباء هذه الحملة. ولا غرو فقد كان جوهر من الرجال الأفاضل الذين برهنوا على شجاعتهم وكفايتهم ومقدرتهم الحربية والإدارية. فقد دانت جميع بلاد المغرب من أقصاها إلى أقصاها للمعز، بفضل ما أظهره جوهر من المهارة الحربية، وكان لجوهر أثر في نشر هذا السلطان. فلما آن أوان فتح مصر جعله المعز على رأس الجيوش التي أعدها لغزوها. وما يدل على مبلغ ثقة المعز به قوله حين خرج إلى مدينة رقادة^(٢) لتوديع الجيوش الفاطمية بقيادة جوهر: «والله لو خرج

(١) المقرئ: انعاظ الحنفاء ص ٦٠-٦١.

(٢) رقادة: تبعد عن القيروان بأربعة أميال، وقد وصفها أبو عبيد الله البكري:

جواهر وحده لفتح مصر ، ولبدخان إلى مصر بالأردية من غير حرب ،
وليزان في خرابات ابن طولون ويبنى مدينة تقرر الدنيا ، . ونقف من عبارة
المعز على ثلاثة أمور :

الأول : غلو المعز في مدح قائده ، حتى كان يرى فيه أنه يستطيع فتح مصر
وحده مع استعصائها على من سبقه من قواد الفاطميين قبله ومعهم الجيوش
الكثيفة . وقد كان ثقة المعز بجواهر الأثر الكبير في نفسه مما جعله يتغاضى
في القتال ليكون عند ظن الخليفة به .

الثاني : وقوف المعز وقوفاً تاماً على أحوال مصر وعجزها عن صد
الجيوش الفاطمية .

الثالث : أن المعز كان يرمى إلى اتخاذ حاضرة جديدة للفاطميين في موضع
خرائب القضايع التي أسسها أحمد بن طولون أو قريباً منها لينشر منها نفوذه
الديني والسياسي على بلاد الشرق . أضف إلى ذلك أن تسمية هذه الحاضرة
بهذا الاسم « القاهرة » كان في نفس المعز قبل تأسيسها على يد جواهر ، مما

= في كتابه : « المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب » ، (ص ٢٧) فقال : إنه بكثير بها
البسائين وإنه ليس بإفريقية (بلاد تونس الحالية) أعدل ولا أطيب تربة منها .
وقيل أن أحد أولاد الأغلب قد أصابه الأرق فأشار عليه طبيبه بالخروج إلى
موضع رقادة . فنام فيه نوماً هادئاً . فسمى هذا الموضع من ذلك الوقت « رقادة »
واتخذها إبراهيم بن محمد بن زيادة الله الثاني (٢٦١ - ٢٨٩ هـ ، ٨٧٢ - ٩٠٢ م) .
ومن ثم أخذت في العمران وكثرت فيها المساجد والقصور والحمامات .

ولم تزل مدينة رقادة مقر ملك بني الأغلب إلى أن هرب منها زيادة الله فاراً
من وجهه أبي عبد الله الشيعي ، فسكنها عبيد الله المهدي إلى أن اتخذ مدينة المهدي حاضرة
للملكة وانتقل إليها سنة ٣٠٨ هـ ، فأخذت رقادة في الخراب شيئاً فشيئاً حتى
أصبحت أبرأ بعد عين .

يمكن أن يدحض ما ذهب إليه المؤرخون من رصد نجم المدينة وظهور
القاهرة، الذي اشتق منه اسم هذه الحاضرة. ولم تقتصر ثقة المعز بجوهر
عندهذا الحد. فقد ذكر لنا ابن خلكان أن الخليفة الفاطمي أمر أولاده
ورجال دولته بالترجل بين يدي جوهر عند ذهابهم لوداعه حين خروجه
على رأس الجيوش الفاطمية لفتح مصر، كما أمر المعز صاحب برقة بالترجل
لجوهر عند لقائه وتقبيل يده. وقد كبر ذلك على الوالي وبذل مائة ألف
دينار على أن يعفى من ذلك، ولسكنه لم يظفر بشيء. وبعد أن قبل جوهر
يد الخليفة وحافر فرسه أذن له بالمسير. ولما عاد إلى قصره بعث إلى جوهر
كل ما كان عليه من لباس خارجي عدا خاتمه^(١).

خرج جوهر من القيروان^(٢) في الرابع عشر من شهر ربيع الثاني سنة
٣٥٨ هـ (فبراير سنة ٩٦٩ م)، وكان معه ألف ومائتا صندوق من الأموال
على الجمال، وجند يربو عدده على مائة ألف^(٣)، وخيل يزيد عددها على عدد
الجند بكثير. ويحدثنا ابن زولاق أن أبا جعفر مسلم العلوي الذي تم الصلح
بين المصريين والفاطميين على يده، سئل عند رجوعه من تروجه عن مقدار
عسكر جوهر فقال: مثل جميع عرفات كثيرة وعدة^(٤). وقد وصف ابن
هانيء الأندلسي شاعر المعز هذا الجيش في قصيدة طويلة قال في مطلعها:

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ١١٥، المقرئ: الخطط ج ١ ص ٣٧٨.

(٢) القيروان: أكبر مدائن بلاد المغرب، وتقع على بعد أربعة أميال من مدينة
رقادة، وتشتهر بمساجدها وحدائقها الغناء ومبانيها الفخمة (البكري: كتاب المغرب
في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب ص ٢٢ — ٢٧)

(٣) ابن خلكان ج ١ ص ١١٩

G. Migeon : Art Musulman, tome I. p. 41

(٤) المقرئ: أتماط الحنفا ص ٧١

رأيت بمعنى فوق ما كنت أسمع وقد راغنى يوم الحشر أروع
غداة كأن الأفق قد سد بمثله فعاد غروب الشمس من حيث تطالع^(١)

وصل جوهر إلى برقة ، فأدى له صاحبها التحية على النحو الذى أمره به
المعز . ثم استأنف جوهر المسير إلى الإسكندرية ، ففتحت له أبوابها من غير
مقاومة ، فدخلها ومنع جنده من التعرض للأهلين^(٢)

من هذا نرى أن جوهرأ كان ذا رأى صائب وسياسة حكيمة ، تألف
بها قلوب المصريين . فقد حال دون ماعساه ينجم من الشغب وأعمال السلب
والنهب التى يرتكبها الجنود الفاتحون . ويرجع الفضل فى ذلك إلى إغداقه
العطايا والأرزاق على جنوده مما لم يترك فى نفس جندى منهم حاجة . وهذا
يفسر مبلغ السهولة التى تم بها فتح سائر البلاد المصرية .

وقد اضطرب أهل القسطنطين حين علموا باستيلاء جوهر على
الإسكندرية . فعقد الوزير جعفر بن الفرات مجلساً من كبار الدولة
للنظر فى الحالة التى وصلت إليها البلاد ، فأجمعوا رأيهم على طلب الصلح ،
ونادى الوزير ابن الفرات للتفاوض مع جوهر فى شروط الصلح وطالب
الأمان على أرواحهم وأملأهم . فأجاب الوزير عنه أبا جعفر مسلم ، وهو
من الأشراف العلويين ومن ذوى المسكنة عند المصريين . فقبل أبو جعفر
القيام بهذه المهمة ، واستنصحب معه جماعة من ذوى الرأى والنفوذ
فى البلاد .^(٣)

وكان إسناد رئاسة هذا الوفد إلى أبى جعفر من الأمور التى دلت على

(١) ديوان ابن هانئ الأندلسى ص ١٠٦ — ١١٢

(٢) يحيى بن سعيد ص ١٣٢

(٣) الإسكندى ص ٦٨٤ ، يحيى بن سعيد ص ١٣٢

حكمة ان الفرات وبعد نظره ، فقد كان ندب رسول من العلويين للقيام بهذه المهمة سبباً في إجابة مطالب المصريين . وقد تجلّى ذلك في هذه الوثيقة التي اشتملت على شروط الصلح . وقد توجه هذا الوفد في يوم الاثنين ١٨ رجب سنة ٣٥٨ هـ وشيعة جمع كبير من الأهلالي (١) .

وقد تلاقى أعضاء هذا الوفد مع جوهر في مدينة تروجه (٢) ، فقبل جوهر ما عرضوه عليه .

وبذلك تم عقد الصلح بين المصريين والفاطميين ، ذلك الصلح الذي أودعه جوهر في هذه الوثيقة التاريخية التي نقلها عن المقرئ فيما يلي :

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من جوهر الكاتب عبد أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه لجماعة أهل مصر الساكنين بها (من أهلها) ومن غيرهم أنه ورد من سألتوه الترسل والاجتماع معي وهم أبو جعفر مسلم الشريف أطلال الله بقاءه وأبو اسماعيل الرضى أيداه الله وأبو الطيب الهاشمي أيداه الله وأبو جعفر أحمد بن نصر أعزه الله والقاضي أعزه الله ، وذكروا عنكم أنكم التستم كتاباً يشتمل على أمانكم في أنفسكم وأموالكم وبلادكم وجميع أحوالكم ، فعرفتهم ما تقدم به أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه وحسن نظره لكم . فلتحمدوا الله على ما أولاكم وتشكروه على ما حماكم وتدابوا فيما يلزمكم وتسارعوا إلى طاعته العاصمة لكم العائدة بالسماعة عليكم وبالسلامة لكم ؛ وهو أنه صلوات الله عليه لم يكن لإخراجه للعساكر المنصورة والجيوش المظفرة إلا لما فيه إعزازكم وحمايةكم والجماد عنكم

(١) الدكتور حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ١٠٦

(٢) بلدة قريبة من الاسكندرية

إذ قد تخطفتكم الأبدى واستطال عليكم المستذل والممتعة نفسه بالاقتدار على بلدكم في هذه السنة والتغلب عليه وأسر من فيه والاحتواء على نعمكم وأموالكم حسب ما فله في غيركم من أهل بلدان المشرق وتأكده عزمه واشتد قلبه . فعاجله مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه بإخراج العساكر المنصورة وبإفاد الجيوش المظفرة دونكم ومجاهدته عنكم وعن كافة المسلمين ببلدان المشرق الذين همم الخزي وشملتهم المذلة واكتنفتهم المصائب وتتابعت الرزايا واتصل عندهم الخوف وكثرت استغاثتهم وعظم ضجيجهم وعلا صراخهم ، فلم يغتهم إلا من أرمضه أمرهم وأمضه حالهم وأبكى عينيه ما نالهم وأسهرها ما حل بهم ، وهو مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه .

فرجا بفضل الله عليه وإحسانه لديه وما عوده وأرجاه عليه استنقاذ من أصبح منهم في ذل مقيم وعذاب أليم بأن يؤمن من استولى عليه المهمل ويفرخ روع من لم يزل في خوف ووجل وأثر إقامة الحج الذي تعطل وأهمل العباد فروضه وحقوقه لخوف المستولى عليهم . وإذ لا يأمنون على أنفسهم ولا على أموالهم ، وإذ قد أوقع بهم مرة بعد أخرى فسفكت دماؤهم وابتزت أموالهم مع اعتماد ما جرت به عادته من صلاح الطرقات وقطع عبث العابثين فيها ليطلق الناس آمنين ويسيروا مطمئنين ويتحفوا بالأطعمة والأقوات ، إذ كان قد انتهى إليه صلوات الله عليه انقطاع طرقاتها لخوف مارتها إذ لا زاجر للمعتدين ولا دافع للظالمين . ثم تجويد السكة وصرفها إلى العيار الذي عليه السكة الميمونة المنصورية المباركة وقطع الغش منها ، إذ كانت هذه الثلاث خصال هي التي لا يتسع لمن ينظر في أمور المسلمين إلا إصلاحها واستفراغ الوسع فيما يلزمه منها وما أعز به مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه إلى عبده من نشر العدل وبسط الحق وحسم الظلم وقطع العدوان ونفي الأذى ورفع الحزن والقيام في الحق وإعانة المظلوم مع الشفقة والإحسان

وجميل النظر وكرم الصحبة ولطف العشرة وافتقار الأحوال وحياطة أهل البلد في ليالهم ونهارهم وحين تصرفهم في ابتغاء معاشهم حتى لا تجرى أمورهم إلا على ما لم شعثهم وأقام أودهم وأصلح بالهم وجمع قلوبهم والى كلمتهم على طاعة وليه مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه وما أمره به مولاه من إسقاط الرسوم الجارية التي لا يرتضى صلوات الله عليه بإثباتها عليكم ، وأن أجريكم في المواريث على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم واضع ما كان يؤخذ من بركات موتاكم لبیت المال من غير وصية من المتوفى بها فلا استحقاق لمصيرها لبیت المال . وإن اتقدم في رم مساجدكم وتزيينها بالفرش والإيقاد وأن أعطى مؤذنها وقومتها ومن يؤم الناس فيها أرزاقهم وأدرها عليهم ولا أقطعها عنهم ولا أدفعها إلا من بیت المال لا بإحالة على من يقبض منهم وغير ما ذكره مولاه وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه مما ضمنه كتابه هذا من ترسل عنكم أيدهم الله وأصحابكم أجمعين بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه من أنكم ذكركم وجوهاً التسمم ذكرها في كتاب أمانكم ، فذكرتها إجابة لكم تطميناً لأنفسكم . فلم يكن لذكرها معنى ولا في نشرها فائدة ؛ إذ كان الإسلام سنة واحدة وشريعة متبعة وهي إقامةكم على مذهبكم وأن تتركوا على ما كنتم عليه من أداء المفروض في العلم والاجتماع عليه في جوامعكم ومساجدكم وثبائنكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة رضی الله عنهم والتابعين بعدهم وفقهاء الأمصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفنواهم ؛ وأن يجرى الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره وقيام لياليه والزكاة والحج والجهاد على ما أمر الله في كتابه ونهيه نبيه صلى الله عليه في سنته وأجرى أهل الذمة على ما كانوا عليه . وأنكم على أمان الله التام العام الدائم المتصل الشامل السكامل المتجدد المتأكد على الأيام وكرور الأعوام في أنفسكم وأموالكم وأهليكم ونعمكم وضياعكم ورباعكم وقلياليكم وكثيركم ، وعلى أنه لا يعترض (عليكم) معترض ولا يتجنى عليكم متجن ولا يتعقب عليكم متعقب ، وعلى أنكم تصانون وتحفظون وتحرسون ويدب

هـنـكم وبمنع منكم فلا يتعرض إلى آذاكم ولا يسارع أحد في الاعتداء عليكم ولا في الاستطالة على قويمكم فضلاً عن ضعيفكم . وعلى أن لا أزال مجتهداً فيما يعمكم صلاحه ويشملكم نفعه ويصل إليكم خيره وتتم فون بركتته وتفتبطون معه بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه . واسمكم على الوفاء بما ألزمتكم وأعطيتكم إياه عهد الله وغليظ ميثاقه وذمته وذمة أنبيائه ورسله وذمة الأئمة موالينا أمراء المؤمنين قدس الله أرواحهم وذمة مولانا أمير المؤمنين المعز الدين الله صلوات الله عليه فتصبرون بها وتعلنون بالانصراف إليهما وتخرجون إلى وتسلبون على وتكونون بين يدي إلى أن أعبّر الجسر وأنزل في المناخ المبارك وتحفظون وتحافظون من بعد على الطاعة وتناوبون عليها وتسارعون إلى فروضها ولا تخذلون ولياً لمولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه وتلزمون ما أمرتكم به وفتمكم الله وأرشدكم أجمعين ، (١) .

هذا هو نص العهد الذي قطعه جوهر على نفسه وكتبه بيده في اليوم الثامن من شهر شعبان سنة ٣٥٨ هـ وأشهد جماعة الحاضرين عليه . وفي هذا اليوم جلس أعضاء هذا الوفد على مائدة جوهر وذلك تمكيناً لأواصر المودة بينه وبين رجال مصر خاصة وتالياً لقلوب المصريين عامة .

وهذه سياسة رشيدة من جانب جوهر ، تنطوى على شيء كثير من الحكمة وبعد النظر . ونحن نعلم ما المآدب من الأثر في حل المعضلات السياسية والدينية . ونلاحظ في هذا الكتاب أموراً ثلاثة :

الأول : نعهد جوهر بنشر العدل وبث الطمانينة في النفوس . وذلك بحماية مصر ضد هجمات المغيرين عليها . وكان لذلك العهد أهمية كبيرة . فقد امتدت الفتوح البيزنطية إلى بلاد الشام التي كانت خاضعة للدولة الإخشيدية ،

(١) المقرئى : انعاظ الحنفى ص ٦٧ — ٧٠

وكان من الطبيعي أن تمتد غاراتهم إلى مصر نفسها التي كان يهددها خطر القرامطة . ولا شك أن حالة الضعف التي وصلت إليها مصر بعد وفاة كافور ، وما نزل بها من وباء وما أصابها من قحط من جراء انخفاض النيل — كل ذلك قد أدى إلى انتشار الفوضى في البلاد . ولم يحمل جوهر هذه الحالة السيئة التي وصلت إليها مصر ، فضرب على هذا الوتر الحساس ، وهو حماية الأهالي من قطاع الطرق وغيرهم من العابثين بالنظام والأمن العام .

الثاني : ترك الحرية للمصريين في إقامة شعائرتهم الدينية والعمل على إصلاح المساجد وترميمها لاجتماع المسلمين فيها للصلاة والنظر في أمورهم . على أننا نرى جوهر لم يغفل الإشادة بذكر العلويين والاعتراف بأحققيتهم في الخلافة ومعنى ذلك تمهيد السبيل لفكر المذهب الشيعي مذهب الفاطميين .

الثالث : قيام جوهر بما تتطلبه البلاد من وجوه الإصلاح ، وذلك بتحسين السكة ومنع ماعسى أن يتطرق إليها من الغش والزيغ ، وإصلاح الجسور ، وتجميل البلاد ، وما إلى ذلك من الإصلاحات التي يعنى بها كل فاضح مصلح .

وفي اليوم السابع من شهر شعبان عاد الوفد إلى القسطنطينية يحمل عهد المصلح ، وعرضه على الأهالي فلم يقبلوه . وصمم الإخشيديون وجماعة كافور والجنود على مواصلة قتال الفاطميين ، وعهدوا إلى « نحرير » بقيادة جيوشهم ، فنزل إلى الجزيرة وأخذ يستعد لملاقاة العدو ^(١) .

وفي الحادى عشر من شعبان من هذه السنة وصل جوهر إلى الجزيرة وسار إلى منية الصيادين ، ثم استولى على المخاضة بمنية شلقان حيث عبر النيل إلى مدينة مصر ، فلاحق به جعفر بن فلاح (الذى تولى فتح الشام فيما بعد)

(١) ابن خلكان ج ١ ص ١٤٩ . ويحيى بن سعيد ص ١٣٢ و ١٣٣

فاستحدثه جوهر على عبور النهر مع المغاربة ليسكون قدوة لهم وقال له : لهذا اليوم أراذك المعز ، فتخلع جمعفر ثيابه وعبى النهر مرتديا سراويله ، فتبعه المغاربة (١).

افى الإخشيدون المغاربة ودار القتال بين الفريقين فدارت الدائرة على المصريين وقتل منهم خلق كثير . وكان من أثر هذه الهزيمة التى لحقت بالجنود المصرية أن عبى بعض فالتهم النهر وسلموا إلى جوهر ، ومن ثم سمل القضاء على البقية الباقية من الجنود المصريين الذين ظلوا مرابطين على المخاضة لحراسها . فتمد انتزع جوهر ملابسه الخارجية ، وعبى النيل مع رجاله فى السفن ، وانقضوا عليهم وشتتوا شملهم (الثلاثاء ١٦ شعبان سنة ٥٣٥٨ هـ) (٢)

وبذلك تم فتح مصر ودخلت فى حوزة الفاطميين فاتخذوها جسراً يعبرون عليه إلى المشرق لتحقيق أغراضهم السياسية والدينية . وقد تم ذلك الفتح بسهولة لم تكن منتظرة بفضل ما امتاز به جوهر من المهارة الحربية والسياسية .

وقد توقع المصريون أن يعاملهم جوهر معاملة من فتحت بلادهم عنوة فيقسم بلادهم بين الجند . لهذا لانهجب إذا رأينا المصريين يخشون هاقبة خروجهم على العهد الذى عرضه عليهم الوفد الذى أنابوه عنهم فى مفاوضة جوهر فى الصلح فيرجون أبا جمعفر مسلم العلوى أن يتدخل فى الأمر من جديد وبطلب الأمان من جوهر . وعلى الرغم من أن جوهر اقد فتح هذه البلاد عنوة فقد عامل أهلها معاملة من فتحت بلادهم صلحاً ، كما عاملهم عمرو ابن العاص من قبل فتأنف بذلك قلوبهم واكتسب محبتهم فدانوا له بالطاعة ورضوا بحكمه .

(١) ابن خلسكان ج ١ ص ١١٩

(٢) أبو الحسن ص ٤٠٧ و ٤٠٨ والمقرئى : انعاظ الخنفا ص ٧٢

وهنا نرى جوهرًا يقيم الدليل على بعد نظره وحسن سياسته . فقد عفا عن المصريين وأذاع على جنوده بيانًا يحرم فيه عليهم الإتيان بأى عمل من أعمال العنف والشدة ، كما جدد لأهل مصر الأمان وضمن لهم استتباب الأمن فى البلاد فى ذلك الكتاب الذى ينم عن أدب القائد الفاطمى وتواضعه وهو فى كامل قوته وفتوته . وهاك نص هذا العهد بعد البسملة نقلًا عن المقرئ :

« وصل كتاب الشريف الجليل أطال الله بقاءه وأدام عزه وتأييده وعلوه وهو المهنا بما هنا به من الفتح الميمون فوقفت على مأسأل من إعادة الأمان الأول وقد أعدته على حاله وجمعت إلى الشريف أيده الله أن يؤمن كيف رأى وكيف أحب ويزيد على ما كتبتنه كيف شاء فهو أمانى وعن إذنى وإذن مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه . وقد كتبت إلى الوزير أيده الله بالاحتياط على دور الحاربيين إلى أن يرجعوا إلى الطاعة ويدخلوا فيما دخلت فيه الجماعة ويعمل الشريف أيده الله على لقائى فى يوم الثلاثاء لسمع عشرة تخلص من شعبان ، (١) .

وبذلك زالت مخاوف الأهالي وأصبحوا فى أمن ودعة ، ولا سيما بعد أن طاف صاحب الشرطة السفلى بصحبة رسول جوهر يحمل عليه اسم المعز لدين الله وأمننا الناس من جديد وأعلننا عدم مطالبتهم بأية كلفة أو مؤونة فاتبهج الناس وهدأت المدينة وعاد الأمن إلى نصابه . فلما كان الخد (الثلاثاء ١٧ شعبان) خرج أبو جعفر مسلم العلوى والوزير جعفر بن الفرات وسائر الأشراف والقضاة والعلماء والتجار إلى الجيزة . فلما وصلوا إليها أقبل القائد جوهر فى عساكره ووقف الشريف عن يمينه والوزير عن يساره ، فصاح بعض حجاب جوهر « الأرض ، فقبلوا كلهم الأرض بين يديه عدا الشريف

والوزير . وتقدم الناس واحدا واحدا ، فلما فرغوا من السلام عليه عادوا إلى
المسقط .

ولما غربت الشمس عبرت الجنود الفاطمية الجسر وبين أيديهم الصناديق
المملأ بالأموال محمولة على البغال . ثم أقبل جوهر في حلة مذهبة في فرسانه
ورجالته وعسكر بجيشه في الموضع الذي اختط فيه مدينة القاهرة . وحين
ذهب المصريون في اليوم التالي لتسليم جوهر وجدوه قد حفر أساس قصر
المعز في الليل (١) .

ولما اتصل بالمعز نبأ فتح مصر سر سرورا عظيما وأنشد محمد بن هاني
شاعر بلاطه قصيدة طويلة مطلعها :

تقول بنو العباس هل فتحت مصر فقل لبني العباس قد قضى الأمر
قد جاوز الاسكندرية جوهر تصاحبه البشري ويقدمه النصر (٢)

وهكذا زال سلطان الإخشيديين والعباسيين جميعاً عن مصر وأصبحت
هذه البلاد ولاية فاطمية . ففدت الدولة الفاطمية تمتد من المحيط الأطلسي
غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً . ووافست القاهرة حاضرة الدولة الفاطمية
الشيعة الفتية بغداد حاضرة الدولة العباسية السفيرة المتداعية . وقد كان لتلك
المنافسة أبعاد الأثر في الحضارة ، (٣) .

وكان استيلاء الفاطميين على هذه البلاد الخطوة الأولى لمذ نفوذهم إلى
بلاد الشام وفلسطين والحجاز التي كانت جزءاً من أملاك الدولة الإخشيدية
وبذلك تحقق الغرض الأول الذي كان يرمى إليه الفاطميون وهو إنشاء
دولة فاطمية في الشرق والغرب (٤) .

(١) ابن خلدون : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٢٠ والمقريزي : انعاظ الحنفيا

(٢) ديوان ابن هاني الأندلسي ص ٦٨

(٣) Lane-Poole : The Story of Cairo, p. 119-120

(٤) Lane-Poole : The Muhammadan Dynasties, p. 71

الباب الثالث

سياسة جوهر في مصر

فتح سورية :

قد ذكرنا أن الغرض الأول من استيلاء جوهر على مصر هو بسط نفوذ الفاطميين على المشرق . فإن استيلائهم على مصر معناه الوصول إلى بلاد الشام وفلسطين والحجاز ، وإنشاء دولة فاطمية في المشرق والمغرب ، حتى إذا تم لهم ذلك استطاعوا أن يمدوا نفوذهم إلى بغداد نفسها حاضرة الدولة العباسية في ذلك الحين .

كانت بلاد الشام في ذلك الوقت تابعة للدولة الإخشيدية . ولم يحمل الإخشيديون — وقد دالت دولتهم في مصر — ما كانت ترمي إليه السياسة الفاطمية من الاستيلاء على بلاد الشام وفلسطين والحجاز . لذلك أعد الحسن ابن عبيد الله بن طنج الإخشيدى وإلى الرملة ودمشق العدة لملاقاة الفاطميين ، فاستخلف شمو لا الإخشيدى على دمشق وسار هو إلى الرملة . على أن شمو لا لم يخلص للحسن ، وكتاب جوهر ا يدعوه للحضور إلى دمشق ووعدوه العون على فتحها ، ثم تقاعد عن نصرة الحسن حين طلب إليه القدوم عليه ، في الوقت الذى وصلت فيه جيوش الفاطميين إلى فلسطين بقيادة جعفر بن فلاح ، من قبيلة كتامة من البربر وأحد قواد المعز الذين أرسلهم إلى مصر مع جوهر . فلما عزم جوهر على فتح الشام وفلسطين عهد إلى جعفر بالقيام بهذه المهمة لما اشتهر به من الشجاعة وحسن القيادة . هذا إلى أن جوهر أرا د بذلك أن يبعد جعفرأ عنه ويطوح به في بلاد الشام حتى

لا ينافس في مصر . فقد كان جعفر يرى في نفسه أنه أفضل من جوهر وأق
منه بإمرة مصر .

سار جعفر إلى بلاد الشام وكانب ولاية الأقاليم يدعوهم إلى طاعة المعز
وبعدهم حسن المكافأة ، ثم التقى جيش جعفر مع جيش الحسن بن جبند
الله في الرملة ، فدارت الدائرة على الحسن وأسر هو وكثير من جنده^(١) ، ثم
سيق إلى القسطنطين فحبس بها ، ثم أرسل إلى بلاد المغرب فبقى بها حتى مات
سنة ٣٧١ هـ .

استأنف جعفر بعد ذلك السير إلى طهرية لمحاربة فانك الذي وليها من قبل
الأخشيديين ، فاستولى على المدينة من غير أن يلقى مقاومة تذكر . ولما علم
أهل دمشق باستيلاء جعفر على الرملة وطهرية خشوا بأسه ، فأوفدوا إليه
جماعة من كبار رعاياه . وقد اتفق وصولهم في اليوم الذي قتل فيه فانك وإلى
طهرية واشتعال نار الفتنة على أثر مقتله . فلم يحسن جعفر وفادتهم ، فعادوا
إلى دمشق ساخطين عليه وعلى جنده من المغاربة^(٢) . وهذا يفسر لنا
الصعوبة التي لاقاها جعفر في استيلائه على دمشق .

بعد أن هزم جعفر بن عقيل ومن إليهم من العرب في حوران وطارد
الغالة منهم إلى حمص ، سارت جنوده إلى دمشق ، وكان شمول قد تركها للملافة
جعفر بطهرية . فاشتدت الفوضى في المدينة وعم الاضطراب واستولى
الذعر على القلوب وحمل الناس السلاح ، وخرج أهل دمشق مشاة وفرسانا
لقتالهم . واستمر القتال طول يوم الجمعة حتى غروب الشمس ، ثم اشتد على
أثر وصول جعفر إلى دمشق (١٠ ذى الحجة سنة ٣٥٨ هـ) . وحملت

(١) أبو المعاض ج ٢ ص ٣٠٩

(٢) المقرئى : انعاظ الحنفى ص ٨١

المغاربة على جند الشام وهزمهم ، وقتلوا منهم عدداً كبيراً ثم دخلوا المدينة واستولوا عليها في المحرم سنة ٣٥٩ هـ ، ثم ألقوا النار في أسواقها ورحابها .

ولما رأى أهل دمشق هزيمة جندهم وأنه لا قبل لهم بالفاطميين ، خرج بعض ذوى رأى والرأى والجاه منهم لمقابلة جعفر ، وطلبوا إليه العمل على إصلاح حال مدينتهم وإعادتها إلى ما كانت عليه . فقبض عليهم بعض المغاربة وسلبوهم ثيابهم وجرحوا كثيرين منهم ، فأثار هذا سخط أهل دمشق فشقوا عصا الطاعة وأذكوا نار الفتنة .

على أن هذه الفتنة لم تلبث أن نهدت أمام قوة جعفر ، ومن ثم لم يجد الأهلون بدا من أن يخطبوا وده . فذهبت جماعة منهم لمقابلتهم وطلب الأمان منه . فلم يقبل منهم جعفر ذلك حتى يخرجوا إليه ومعهم نساؤهم مكشوفات الشعور فيتمرغن في التراب بين يديه^(١) ، فرضوا بذلك صاغرين . على أنه لم يلبث أن هدأت ثائرته فتبسط معهم في الحديث واستقر رأى بينه وبينهم على أن يصلى هو ورجاله يوم الجمعة في مسجد دمشق . وفي ذلك اليوم ركب جعفر في أصحابه ودخل المدينة وصلى بالجامع ، حيث حذف اسم الخليفة العباسي من الخطبة وذكر مكانه اسم الخليفة الفاطمي ، وكان ذلك في المحرم سنة ٣٥٩ هـ^(٢) . وقد انتهن أصحاب جعفر فرصة وجودهم بالمدينة فذهبوا الناس ، فنار أهل دمشق عليهم وقتلوا كثيرين منهم . ولم يجد شيوخ المدينة بدا من مقابلة جعفر لإعلان استيائهم عما حدث وطلب الأمان من جديد ، فقال لهم « دخل رجال أمير المؤمنين للصلاة فقتلوهم »^(٣) . ثم هددهم باستعمال

(١) المقرئى : انعاظ الحنفيا ص ٨٢

(٢) أبو المحاسن ج ٢ ص ٤٠٩

(٣) المقرئى : انعاظ الحنفيا ص ٨٣

العنف والقسوة معهم، فهدأوا روعه وتلطفوا معه في القول، حتى وعدهم العفو إذا هم دفعوا دية من قتل. فجمعوا له الأموال السكينة حتى ساءت حال المدينة لما نزل بأهلها من الإرهاق.

من ذلك يتبين لنا هوادة جعفر في ضبط جنده وكبح جماحهم حتى بلغ بهم الاستهتار بمركز القيادة أن كانوا يعترضون وفود الصلح والسلام من أهل دمشق، فيقتلونهم ويسلبون أموالهم وثيابهم، مما أثار نفوس الأهلين عليهم ووقف حجر عثرة في سبيل فتح هذه المدينة. وهذا يوضح لنا حكمة جوهر وبعد نظره وحسن سياسته. فانه لما دخل الإسكندرية أمر جنده بالسكف هن أعمال السلب والنهب حتى دانت له البلاد وألقت بزمامها إليه، مع أن جنود جوهر من المغاربة الذين تم على أيديهم فتح مصر، هم جنود جعفر بن فلاح الذين وجهم جوهر لفتح بلاد الشام وفلسطين.

وقد رأى جعفر أن الاضطرابات لن تهدأ في دمشق وأنه لن يستطيع توطيد سلطان الفاطميين فيها، إلا بالقضاء على زعماء الفتنة، فأرسل جنده من المغاربة في طلبهم، فقبضوا عليهم، فأمر جعفر بهم فضربت أعناقهم وصلبت جثثهم وعلقت رؤوسهم على الأبواب، وكان من بين هؤلاء اسحق بن عسودا ولم ينج منهم إلا أبو القاسم بن أبي يعلى العباسي ومحمد بن عسودا، وكانا من أظهر زعماء الثورة. أما ابن أبي يعلى فقد هرب من الشام يريد بغداد، فقبض عليه عند تدمر وأرسل إلى جعفر حيث شهر به. فحمل على جمل وفاق رأسه قلنسوة وفي لحيته ريش، وبيده قسيمة^(١) ثم بعث به إلى مصر. وقد ذكر أبو المحاسن^(٢) أن الشريف أبا القاسم لما هرب إلى بغداد، قال ابن فلاح: من أتاني به فله ألف درهم. فلقية ابن غلبان العدو فقبض عليه وساقه إلى

(١) المقيري: اتعاظ الخنقا ص ٨٣

(٢) ج ٢ ص ٤١٠

ابن فلاح فشهر به. ثم طلبه ليلا وقال له : « ما الذى حملك على ما صنعت ، ومن قد بك إلى ذلك ؟ » فقال أبو القاسم : « ما حدثنى به أحد وإنما هو أمر قدر ، فرق له جعفر ووعدته بأن يكاتب فيه القائد جوهرأ . ولا غرو فقد كان ابن فلاح يحب العلويين ، فأحسن إليه وأكرمه . أما محمد بن عهودا فقد خلق بالقرامطة في الأحساء هو وظالم بن موهوب العقيلي والى حوران من قبل الإخشيديين .

وبذلك تم فتح بلاد الشام وفلسطين ، ودان أهلها لسلطان الفاطميين ، فتحقق الغرض الذى كانت ترمى إليه السياسة الفاطمية من فتح مصر واتخاذها جسراً يهبط عليه الفاطميون إلى بلاد المشرق . على أن فتح هذه البلاد ، وإن كان قد تم على يد جعفر بن فلاح ، فقد كان لسياسة هذا القائد ، وما ارتكبه من أعمال العنف والشدّة وإطلاقه العنان لجنده للعبث بالنظام والاستتمسار بأرواح الأهلىن ، أثر سيء فى صرف قلوبهم عنه ومشايعة زعمائهم وتأمرهم ضده وضد جنده من المغاربة . ومن ثم كانوا لا يدعون فرصة تمر دون أن ينتهمزوها للخروج على سلطان الفاطميين . وقد ظهر أثر هذه السياسة الخرقاء فى استنجد أهل الشام بالقرامطة وأفتكبن مما منفصله بعد .

تهريب سلطان الفاطميين فى سورية :

كانت دمشق قبل استيلاء الفاطميين عليها تدفع لزعم القرامطة الحسن ابن احمد جزية سنوية قدرها ثلاثمائة ألف دينار . فلما استولى عليها الفاطميون قطعوا الجزية عنه ، فصمم القرامطة على إكراههم على دفعها . ولم يتردد الحسن القرمطى فى أن يطلب التحالف مع الخليفة العباسى السفى فى بغداد ضد الفاطميين الشيعة فى مصر . بيد أن الخليفة العباسى قد رفض التحالف معه . ففكر الحسن فى استمالة بنى بويه إليه ، وكانوا أصحاب النفوذ الفعلى فى بلاد العراق ،

فرفض هؤلاء أيضاً أن يحالفوه ، ولم يقبل التحالف معه سوى أمير الرحبة^(١) من الحمدانيين وبعض القبائل العربية^(٢) .

وقد سار الحسن القرطبي الملقب بالأعصم إلى الدكة^(٣) حيث اشتبك هو وجند جعفر فاستهان به جعفر ، ولكن جنده لم تلبث أن تهاذلت عنه وانفضت من حوله ، فمزم ثم أسر وقتل هو وكثير من أتباعه (٦ ذى الحجة سنة ٣٦٠ هـ) وقد عثر محمد بن عسودا على جثته خارج دمشق فقطع رأسه وصلبه على حائط داره ، انتقاماً لأخيه إسحق الذي قتله جعفر وصلبه^(٤) .

بذلك انتهت حياة القائد الذي نشر سلطان الفاطميين في سورية وانتزعها من يد الإخشيديين وأذل زعماء الثورة التي قامت في وجهه .

وقد عزا المقرئى ما حل بجعفر بن فلاح إلى ما ارتكبه من الخطأ وسوء التدبير والتباهى بنفسه ، حتى ترفع عن جوهر وعز عليه أن يكتبه وكان المعز موقفاً في جوهر ، مبيناً ما بذله من الجهد في فتح بلاد الشام وفلسطين^(٥) . فلما وصلت كتب جعفر بن فلاح من الشام إلى المعز وهو ببلاد المغرب ، لم يفضها وأمر بردها إليه مع كتاب منه ينبهه إلى ما ارتكبه من سوء التصرف ويأمره بمكاتبة جوهر باعتباره رئيسه المباشر ، وذلك على الرغم من مكانة جعفر في نفس المعز ، تلك المكانة التي لم تفقده شيئاً بجانب تمسك المعز بجوهر وثقته به لشدة إخلاصه وحسن بلائه . ولما علم جوهر بذلك غضب على جعفر . وكان لذلك أثر عظيم فيما صادف جعفر من الصعاب في

(١) الرحبة : بلدة واقعة على نهر الفرات

(٢) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ٣٢٥ ، ٣٥٠ ، ٥٠٩

(٣) الدكة : بلدة واقعة على نهر يزيد على مقربة من دمشق .

(٤) ابن خلكان ج ١ ص ١٤١

(٥) الخطط ج ١ ص ٣٧٨

فتوحاته ، إذ أنه أحجم عن مكاتبة جوهر وطلب الإمداد منه خشية أن يستعاض
عن نصرته . وظلت الحال على ذلك حتى قدم الحسن بن أحمد القرمطي
وأوقع بجعفر وأرداه قتيلاً . وقد وجد على باب قصر جعفر بدمشق بعد موته
هذان البيتان :

يا منزل عبث الزمان بأهله فأبادهم بتفرق لا يجمع
أين الذين عهدتهم بك مرة كان الزمان بهم يضر وينفع؟

وهكذا استولى الحسن القرمطي على دمشق ، واحتفل بانتصاره فيها ،
واعن الخليفة الفاطمي المعز على منبر المسجد الأموي بدمشق . وقد علق
الدكتور De Lacy O'Leary على ذلك بقوله : « يعتقد القرامطة بنظرية الحق
الإلهي للإمام الفاطمي . ومن ثم يبدو هذا اللعن غريباً ، وقد يرجع هذا
إلى أهل دمشق أنفسهم الذين كانوا سنيين غالين في عدائهم للشيعنة أو إلى
القرامطة الذين لم يعودوا يحفلون بشرف الاتناء إلى آل علي والذين لا يكثرئون
بالاهتبارات الدينية أيا كانت » (١) .

(١) أفتكين

كان أبو منصور أفتكين التركي الشرابي غلاماً لمعز الدولة أحمد بن بويه .
ولم يزل يترقى حتى عظم شأنه في بغداد وغلب على عز الدولة بختيار بن معز
الدولة بن بويه . فلما سار الأتراك من بغداد لقتال الديلم اشتهر أفتكين
بالشجاعة والإقدام ، إلا أن أصحابه انفضوا من حوله وتركوه ولم يبق معه
سوى طائفة قليلة العدد . فسار إلى الرحبة في نحو أربعائة رجل ، فخصمه العرب ،
وخرج إليه ظالم بن موهوب العقيلي من بغلبك ، بعد أن بعث إلى أبي محمود
إبراهيم بن جعفر وإلى دمشق من قبل الخليفة المعز لدين الله الفاطمي يعلمه

بأن أفتسكين قد غادر بغداد وأنه في طريقه إلى دمشق لإقامة الخطبة للخليفة العباسي . فأرسل إليه وإلى دمشق جيشاً سار نحو حوشبة لمقاتلة أفتسكين الذي أمده أبو المعالي بن حمدان بجيش كبير . فلما رأى ظالم أنه لا قبل له بمنازاته عاد إلى بلعبك . وسار أفتسكين إلى حمص ، فتلقاه أبو المعالي بالقبول وأكرم وفادته .

وقد ثار في ذلك الحين بدمشق جماعة بزعامة ابن الماورد وحاربوا ولاية المعز واشتد خطرهم . فلما بلغهم خبر خروج أفتسكين بعثوا إليه بمحمص يدعونه ويعمدونه باذكاء نار الثورة وأن يكونوا معه على جند المعز وعوناً له على إخراجهم من دمشق ليصبح هو واليا عليها^(١) . ولا غرو فقد كان أهل دمشق خاصة وأهل الشام عامة يكرهون المغاربة لمخالفتهم لهم في المذهب الديني من جهة ، وسوء سياسة الفاطميين في بلادهم من جهة أخرى . ومن ثم سار أفتسكين حتى وصل بثنية العقاب في أواخر شعبان سنة ٣٦٤ هـ^(٢) .

دخل أفتسكين دمشق من غير حرب وأقام فيها أياماً ، ثم سار لقتال ظالم ابن موهوب العقيلي . ففر ظالم من وجهه ودخل أفتسكين بلعبك . وكان الروم قد سبقوه إليها ، فاتهمزوا فرصة دخوله بها ، فتهبوا وانتشروا فيها يحرقون ويسرقون ويقتلون (رمضان سنة ٣٦٤ هـ) . ثم قصدوا دمشق ، وكان أفتسكين قد وصل إليها ، فقابلهم أهلها وطلبوا إليهم الرحيل في مقابل مال يؤدونه إليهم ؛ ثم استقبلهم أفتسكين وأخبرهم أنه لا يستطيع جباية الأهوال لنفوذ ابن الماورد وأصحابه بها . فأمر إمبراطور الروم بالقبض على ابن الماورد . واشتط أفتسكين في جباية الضرائب حتى جمع ثلاثين ألف دينار ، أخذها

(١) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٩ .

(٢) ابن القلائسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦ .

الإمبراطور وذهب إلى طرابلس . وبرحيله عن دمشق قوى نفوذ أفتككين فيما ودعا للطائع العباسي^(١) .

وفي ذلك الحين ظهر القرامطة على مسرح السياسة للمرة الثانية ضد الفاطميين الذين طالما تغنى القرامطة بأنهم من مذهبهم وبأنهم ينشرون الدعوة لهم . فقد استدعاهم أفتككين من الأحساء لمعاوقته على قتال الفاطميين . فقدموا دمشق في سنة ٢٦٥ هـ ، ومعهم كثير من أعوان أفتككين الذين شئت المعز شملهم ؛ فقوى بذلك نفوذهم ، واجتمعوا على إخراج الفاطميين من هذه البلاد .

ترك القرامطة وأفتككين دمشق إلى الرملة فنزلوا بها ، وهاجموا يافا . ثم واصل أفتككين سيره على ساحل البحر الأبيض المتوسط حتى وصل إلى صيدا ، وكان بها ظالم بن موهوب العقيلي وابن الشيخ واليهما من قبل المعز . فقاتلهم ابن الشيخ قتالا شديدا ، وقتل من الفريقين نحو أربعة آلاف رجل ، وانتهى القتال بهزيمة ابن الشيخ وتراجع ظالم إلى صور . وقد انتقم أفتككين من جنود المعز فقطع أيدي القتلى وأرسلها إلى دمشق ، فطيف بها ، ثم سار إلى عكا وبها حامية المعز .

وهكذا تفاقم خطر القرامطة وأفتككين في الشام واستعصى أمرهما على الفاطميين ؛ ولم يتم القضاء عليهما إلا في عهد العزيز الفاطمي على يد جوهر ، وهو ما سنفصله في الباب الخامس .

(١) المقرئى : الخطوط ج ٢ ص ٩٠

صدر جوهر غارات القرامطة عن مصر:

خشى جوهر ، بعد استيلائه على مصر ، خطر القرامطة لما كان يراه من تخريبهم وتدميرهم الولايات العباسية وغيرها من الأقاليم التي أغاروا عليها ، وكذا تعرضهم لقوافل الحجاج وسلبهم أموالهم . فقد ذكر المقرئ أن السبب الذي حدا بجوهر إلى تأسيس القاهرة هو خوفه من غارات القرامطة على مصر وتوقعه هذه الغارات من حين لآخر . ومن ثم بنى سور القاهرة وضم بين جوانبه الخطوط التي تكونت منها القاهرة المعزية ليكون هذا السور حصناً منيعاً ضد هجمات القرامطة^(١) . وقد صدق حدس جوهر ، فقد هدد القرامطة مصر من ناحية الشرق بعد اشتباكهم مع الفاطميين في الشام واستردادهم دمشق من جعفر بن فلاح وأسرهم وقتله .

سار الحسن بن أحمد زعيم القرامطة إلى الرملة ، حيث انضم إليه كثير من الإخشيديين بعد أن هرب واليها سعادة بن حبان الذي ولاه عليها جوهر في شوال سنة ٣٦٠ هـ إلى يافا . ثم استأنف الحسن مسيره إلى مصر فوصل إليها هلال ربيع الأول سنة ٣٦١ هـ^(٢) ، ودخل مدينة القلزم (السويس) وأسر واليها عبد العزيز بن يوسف^(٣) ونهب ما كان يملك من الخيل والإبل ثم هاجم الفرما ودخلها على حين غفلة من أهلها في المحرم سنة ٣٦١ هـ . فكان بذلك صاحب النفوذ في برزخ السويس ، واعترفت بسلطانه مدينة تديس وخرجت على واليها . وقد وزعت المنشورات في جامع عمرو لخص الناس

(١) الخطط ج ١ ص ٢٥٧

(٢) أبو المحاسن ج ٤ ص ٤٣٢

(٣) في ديوان المتنبي أبيات كثيرة من الشعر عن عبد العزيز هذا . ولا غرو فإن المتنبي هو الذي سهل له طريق الهروب من مصر وأضافه عنده

على حصيان جوهر . ثم أمعن الحسن السير في داخل البلاد وعسكر برجاله في
هين شمس (هليوبوليس) وهدد القاهرة (١) .

ولما سمع جوهر بوصول الحسن إلى برزخ السويس بدأ يستعد لقتاله .
فحفر خندقاً أقام عليه بابين من الحديد كانا على ميدان الإخشيد ، وبني قنطرة
على الخليج ووزع السلاح على المغاربة والمصريين . ثم بعث جوهر رجلاً
من عنده إلى معسكر القرامطة تظاهروا بالسخط على الفاطميين والرغبة في
التخلص من حكمهم ، وما زالوا يبدون بذور الفتنة بين القرامطة حتى انتشرت
الفوضى في جيوشهم ودب الانقسام في صفوفهم (٢) .

وقد بدأ القتال مع القرامطة في أوائل وبيع الأول عند باب القاهرة ،
وقامت بين الفريقين معركة أسر وقتل فيها عدد كبير من الجانبين . وظلت
الحرب بينهما سجالاً حتى حاول زعيم القرامطة وقائد جيوشهم الحسن بن أحمد
الاستيلاء على الخندق عنوة ، وكان باب القاهرة حينئذ مغلقاً . فلما غربت
الشمس أمر جوهر بفتح الباب . فابتدأ القتال ، واستمرت نار الحرب التي
انتهت بهزيمة القرامطة وارتدادهم إلى القلزم (٣) .

وقد أظهر جوهر في هذه الحروب شجاعة نادرة ومهارة فائقة . فقد حمل
على القرامطة حملة صادقة فردم على أعقابهم مدحورين مهزومين بعد أن
كادت البلاد تقع في أيديهم وتعرض لشكثير من الويلات والمحن . وليس
أدل على مبلغ استيلاء جوهر منهم وحنقه عليهم من إعلانة في البلاد عقب
رحيلهم إلى القلزم مكافأة كل من أتى له بقرمطى أو برأسه بثلاثة آلاف دينار

G. wiet : Precis d'Histoire Musulmane de l'Egypte, P.32 (١)

(٢) المقرئى : اتعاظ الخنفاء ص ٩٣ .

(٣) أبو الفداء : ج ٢ ص ١١٧ ، ١١٨ ، المقرئى : اتعاظ الخنفاء

وخمسين خلمة وخمسين سرجاً^(١). وقد استولى المصريون على مانركة القرامطة من الأسلاب في ميدان القتال .

ولاشك في أن جوهرأ مدين بالنصر لما قام به الجند المتطوعة من المهريين من الدفاع المجيد ؛ فقد رأوا بلادهم مهددة بالفتن ، وأموالهم معرضة للضياع وأرواحهم للملاك . فصعدوا للقتال حتى ردوا القرامطة ، ثم انتقموا من مالا العدو من الجند الإخشيدية ، فأسروا وقتلوا عدداً كبيراً منهم . وفي ذلك يقول ابن القلانسي : ونادى جوهر في الإخشيدية فاجتمعوا ، فعمل لهم طعاماً وحلف لهم على المصافاة ، ثم قبضهم وقيدهم وحبسهم^(٢) ، وكانوا ألفاً وثلثمائة مقاتل ،^(٣) .

كان هؤلاء الجنود مصدر الشغب وإثارة الفتن والقلق في البلاد . فرأى جرهر أن الأحوال لا تستقيم بإطلاق الحرية لهم . وهذا يفسر لنا عدوله عن العهد الذي قطعه على نفسه بمصافاتهم ، ولم يربداً من منع أذاهم باقصائهم عن الجمهور .

ولما سمع المعز وهو ببلاد المغرب خبر غزو القرامطة مصر ، أرسل جيشاً من القيروان تحت قيادة أبي محمد الحسين بن عمار . فزادت قوة جوهر الحربية وعزم على إخضاع مدينة تيفيس والانتقام من سكانها الذين والوا القرامطة وانضموا إليهم . فسار إليها وأخضع أهلها وأسكنه عفا عنهم . ثم رجع أسطول القرامطة من النيل بعد أن خسر سبع سفن حربية وخمسمائة أسير ، وعاد الحسن إل دمشق ليتأهب للقتال من جديد^(٤) .

(١) المقرئى : اتعاظ الحنفا ص ٨٦

(٢) وقد أطلق المعز سراحهم حين قدم مصر سنة ٣٦٢ هـ : المقرئى : اتعاظ

الحنفا ص ٩١

(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٢

(٤) De Lacy O'leary : The Fātimid Khalifate p . 109 .

ولما وصل المعز إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ رأى أن ملكه لا يزال معرضاً لخطر القرامطة . فإنهم ما فتئوا يهددون مصر ، ويتابعون الإغارة عليها لانتزاعها من الفاطميين . فأرسل المعز إلى الحسين بن أحمد القرمطي كتباً بها عنوانه :

« من عبد الله ووليه وخيرته وصيفه معد أبي تميم المعز الدين الله أمير المؤمنين رسالة خير النبيين ونجل على أفضل الوصيين إلى الحسن بن أحمد » (١).

وقد بدأ المعز هذا الكتاب « بسم الله الرحمن الرحيم » ، وذكر الحسن فيه بسنة الأوائل الابتداء بالاحذار والانتها بالإنذار ، كما ذكره أن جديده أبا سعيد وأبا الطاهر كانا يدينان بنفوذهما للفاطميين ويعتقدان مذهبهم . ثم ندب بسياسة الحسن وأظهر حنقه عليه واستيائه منه في تلك العبارة : « أما أنت أيها الغادر الخائن الناكث الباين على هدى آبائه وأجداده ، المنسلخ من دين أسلافه وأنداده ، والموقد لنار الفتنة ، والخارج عن الجماعة والسنة ، فلم أغفل أمرك ، ولا خفي عنى خبرك ، ولا استتر دوني أثرك . وإنك مني بمنظر ، وفي نهاية الكتاب عرض عليه المعز ثلاث خصال لينتار لنفسه منها واحد : إما أن يرد جميع ما استحوذ عليه من الأسلاب في حروبه مع جعفر وجنده بدمشق وسعادة بن حيان ورجاله بالرملة ، وإما أن يردم أحياء ، وهو ما لا قبل له به ، وإلا أن يسير هو وأتباعه إلى المعز فيحكم عليهم بالقصاص أو الفدية .

وقد رد الحسن على ذلك الكتاب الطويل الذي بعث به الخليفة الفاطمي إليه بتملك الكلمات : لقد تسلمت كتابك المملوء بالآفاظ ، الخالي من المعاني وسيأتيك جوابي .

ويظهر لنا أن الحسن القرمطي كان ينوي إعادة الكرة والإغارة على

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢

من جديد . ولم يصرفه عن ذلك تلك المزيمة التي حلت به على يد جوهر ، بل ولم يرهبه ما أظهره المعز في كتابه اليه من التباهى بقوته والاستخفاف بمحمد عدوه . يتضح لنا صحة هذا القول من هذين البيتين اللذين نظمهما الحسن بعد هزيمته :

زعمت رجال العرب أنى هبتها فدمى إذا ما بينهم مطلول
يامصر إن لم أسق أرضك من دم يروى ثراك فلا سقاني النيل^(١)

وقد ظهر القرامطة في شهر ربيع الثانى سنة ٣٦٣ هـ للمرة الثانية في عين شمس ، وعاونهم أنصار الإخشيدية الذين انتشروا في جميع أنحاء مصر . فبعث المعز ابنة عبد الله إلى الوجه البحرى على رأس جيش عظيم من أربعة آلاف مقاتل ، هموا القرامطة في عدة وقائع . غير أن هذه الهزائم المتكررة لم تفت من عضد القرامطة . فقد اجتمعت أمام الخندق الذى حفره جوهر وأعدوا المعدات لاجتيازه^(٢)

وقد استطاع الخليفة الفاطمى بواسطة جواسيسه أن يفسد قبيلة بنى طلى من العرب ، فرشا زعيمها حسان بن جراح الطائى . وكانت هذه القبيلة أقوى العناصر في جيش الحسن القرمطى . وبذلك نجحت سياسته في فصل هذه القوة الكبيرة عن القرامطة . وقد خصص المعز لذلك مائة ألف دينار . ولما لم يكن في بيت المال من الدنانير ما يكفى لتحقيق هذه الفكرة ، أمر المعز بضرب نقود زائفة من الرصاص ، مغطاة بطبقة رقيقة من الذهب ، وضعت في أكياس ووضع في أعلاها قليل من الدنانير المضروبة من الذهب النخالص . فلما استعرت نار الحرب بين الفريقين انصرف بنو طلى ، وولى

(١) المقرئى : اتعاظ الخنفا ص ١٣٣ - ١٣٤

(٢) Lane-Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, P. 113

ابن الجراح منهزماً ، وتشنت شمل القوة الى بقيت مع الحسن القرمطى ،
فنهب معسكره وقتل من أتباعه نحو ألف وخمسمائة وذلك في رمضان سنة ٣٣٣هـ
ومن ذلك الوقت بدأت قوة القرامطة في الضعف لوقوع النزاع بينهم ، فارتدوا
عن مصر إلى غير رجعة (١).

الدعوة الفاطمية في مصر:

كانت القيروان أو المهدية لانصالح حاضرة للدولة الفاطمية ، بعدها عن
الولايات الاسلامية التي كان الفاطميون يتطلعون إلى الاستيلاء عليها ، كالشام
وفلسطين . ولما كانت مصر واسطة العقد بين الأمم الاسلامية ، فضلاً عما
اشتهرت به من الخصب ونماء الثروة ، فسكر المهدي الفاطمي في غزوها
وجعلها حاضرة للدولة الفاطمية بعد أن وطد سلطانه في بلاد المغرب . ولا
غرو فإن فكرة غزو هذه البلاد قديمة توارثها الخلفاء الفاطميون بعضهم عن
بعض . فإن امتلاك مصر معناه نشر عقائد المذهب الفاطمي في ثلاثة من
الحواضر الإسلامية الكبيرة : وهي المدينة والفسطاط ودمشق ، فقد كان كل
من الشام والحجاز تحت سلطان مصر في ذلك الحين .

غزت جيوش المهدي الفاطمي هذه البلاد ثلاث مرات : أما الأولى ففي
سنة ٣٠١ هـ ، والثانية ابتدأت سنة ٣٠٧ هـ ولم تنته إلا سنة ٣٠٩ هـ في حين
ابتدأت الغزوة الثالثة سنة ٣٢١ هـ واستمرت حتى عهد القائم بن المهدي
سنة ٣٢٤ هـ .

وهذه الغزوات ، وأن كانت قد فشلت من الوجهة الحربية ، إلا أنها قد
مهدت السبيل لنشر الدعوة الشيعية في مصر . فقد أصبح فيها عدد كبير يعطف
على تلك الدعوة ، وكاتبوا الفاطميين وطلبوا إليهم غزو مصر ووعدوهم العون

على فتحها . يدل على ذلك الخطبة التي ألقاها المعز على رؤساء كتامة قبيل رحيل جوهر إلى مصر . فقد جاء فيها : « واني مشغول بكتب زد على من المشرق والمغرب أجيب عليها بخطي^(١) » . وما ذكره أبو المحاسن من أن الشيعة في مصر أرسلوا إلى المعز كتباً جاء فيها : « إذا زال الحجر الأسود^(٢) فقد ملك مولانا المعز الدنيا كلها^(٣) » ، وكان لهذه المسكاتبات التي دارت بين المصريين والمعز أثر عظيم في تسهيل فتح مصر على يد جوهر^(٤) . ثم هذه الآيات التي نظمها ابن مهران بمن شهد هذه الحوادث من الشعراء ، ننقلها عن السكندى :

وقد حشدوا لمصر ودون مصر (له) خرط القتاد وأى خرط
وأقبل جاهلاً حتى تخطى وراز بجمله حد التخطى
بكتب جماعة قد كاتبوه من أقباط بمصر وغير قبلى
وكل كاتبوه وناقونا وكل فى البلاد له موطن^(٥)

ويظهر أن الدعوة للفاطميين في مصر قد انتشرت وجذبت إليها كثيرين من الأنصار ، حتى إن ذكا الرومى والى مصر (٣٠٣ - ٣٠٧ هـ) قد خشي استفحال أمر هذه الدعوة . فأخذ في اضطهاد القائلين بها ، فسجن كثيرين منهم ونكل بهم .

ولا شك أن الدعوة للبيت العلوى قد صادفت نجاحاً عظيماً في مصر ، فقد أصبح فيها عدد غير قليل يعتنق المذهب الشيعى ويعمل على نشره . ويرجع

(١) المقرئى : اتعاط الحنفيا ص ٦٠ - ٦٦

(٢) يقصدون كافورا الذى كان يتولى حكم مصر إذا ذاك

(٣) ج ٢ ص ٤٤٣

(٤) المقرئى : اتعاط الحنفيا ص ٦٦

(٥) كتاب الولاة وكتاب القضاة ص ٢٧٢

ذلك إلى ما كان من إدماج الفاطميين في صفوف جندهم ، الذين أوفدوهم لفتح مصر ، دهاة يعمدون إليهم الاختلاط بالناس وتعليمهم عقائد المذهب الفاطمي . أضف إلى ذلك ما قام به الخلفاء الفاطميون من تشجيع هذه الدعوة ، بإرسال الكتائب بخططهم مذيلة بإمضاءاتهم هذه البلاد يدعون الناس فيها لاعتناق العقائد الفاطمية . فقد كتب الخليفة الفاطمي القائم (٣٢٢ - ٣٢٣ هـ ، ٩٣٤ - ٩٤٥ م) كتاباً بيده إلى محمد الإخشيد وإلى مصر يدعو إلى إقامة الخطبة للخليفة الفاطمي وإزالة اسم الخليفة العباسي منها . غير أن هذا الكتاب لم يكن له أثر يذكر في نفس الإخشيد ، فأهمل رسول الخليفة القائم ولم يجب على هذا الكتاب بشيء .

على أن إرسال الخليفة العباسي محمد بن رائق الخزري إلى الشام لأخذ مصر وطرد الإخشيد منها قد أحفظ الإخشيد وأثار حنقه . فتبدلت صلة الصداقة التي كانت تربطه بالخليفة العباسي إلى عداوة مستوحش . فأمر الإخشيد بإيقاف الخطبة للخليفة العباسي وإقامتها للخليفة الفاطمي .

وقد روى ابن سعيد نقلاً عن عمر بن الحسن الخطيب العباسي في مصر أن الإخشيد قطع الخطبة للخليفة العباسي وأمر بذكر الخليفة الفاطمي محله . وذكر أن السبب في ذلك هو ما اتصل بالإخشيد عن مسير ابن رائق لتسلم مصر منه بأمر الخليفة العباسي ، مما أثر في نفس الإخشيد ، فأمر الخطيب بالدعوة للقائم الفاطمي (١) .

وسواء صحت هذه الرواية أو تلك ، فقد كان ذلك خطوة كبيرة للاعتراف بسلطان الفاطميين الذين زاد عدد أتباعهم في هذه البلاد .

على أن الخطيب العباسي لم يبين لنا إذا كانت الخطبة قد أقيمت فعلاً للخليفة الفاطمي . فإن المؤرخين لم يكشفوا لنا عما إذا كان اسم الخليفة العباسي قد

حذف من الخطبة بالفعل ، إذ لو قطعت الخطبة للخليفة العباسي لما ضن المؤرخون بموافقاتنا بهذا الخبر لأهميته وخطورته . فإن ذكر اسم الخليفة في الخطبة ونقشه على السكة من أهم مظاهر الخلافة في الولايات الإسلامية .

إلا أن ضعف الخلافة العباسية في ذلك الوقت ، وذلك العداء المستحكم بين الخليفة العباسي والإخشيد ، وقيام علاقات المودة بين الإخشيد والفاطميين ، وظهور فريق من المتشيعين في مصر " يعمل على نشر المذهب الفاطمي - كل ذلك يجعلنا نميل إلى القول بأن الإخشيد قد قطع الخطبة للخليفة العباسي المطيع ولو إلى حين .

وقد ظلت علاقات المودة قائمة بين مصر وبلاد المغرب ، حتى أن الإخشيد عرض على القائم أن يزوج ابنه المنصور من ابنة الإخشيد . فوافق القائم على ذلك وبعث بموافقته إلى الإخشيد . فأرسل هذا إليه صدقاً قدره مائة ألف دينار . فاستقل القائم هذا المبلغ ، ومن ثم توترت العلاقات بين الإخشيديين والفاطميين .

هذا ما رواه لنا ابن سعيد ونحن نشك فيه كل الشك . إذ كيف يعقل أن يعرض الإخشيد ، وهو أحد ولادة الخليفة العباسي ، أن يزوج ابنته من ولي عهد الخليفة الفاطمي الذي كان يضم له العباسيون الكراهية والبغضاء . ولعل الخليفة العباسي قد سير ابن رائق لتسلم زمام مصر من الإخشيد حين اتصل به عليه نبأ هذا الزواج ، فعدل الإخشيد عن الماضي في هذا السبيل : ومات هو والخليفة الفاطمي بعد قليل ، واشتغل ابنه المنصور بالقضاء على ثورة أبي يزيد ومن ثم فشل مشروع الزواج وانقطعت العلاقات الودية بين مصر وبلاد المغرب .

ولم يحاول الفاطميون غزو مصر في البقية الباقية من خلافة القائم (٣٢٢ - ٣٣٤ هـ) وطوال عهد المنصور (٢٣٤ - ٣٤١ هـ) . لأن قيام الثورات التي

أذكى نيرانها الخوارج — ولا سيما ثورة أبي يزيد — قد استنفدت جهود الخليفةين كما استنفدت كل موارد البلاد المسالية .

وظلت الحال كذلك إلى أن جاء الخليفة المعز رابع الخلفاء الفاطميين ، فحاول إعادة الكرة لغزو مصر . وقد سارت جيوشه إليها في عهد كافور الإخشيدي ، ووصلت إلى حدود هذه البلاد الغربية ، حيث حالت الجيوش المصرية دون تقدمها داخل البلاد ، على الرغم من استقباله في بلاطة دعاء الفاطميين الذين أرسلهم المعز لدعوته هو ورجال بلاطه وموظفي دولته للدخول في طاعة الخليفة الفاطمي . وقد أخذت البيعة للمعز من معظم رجال الإخشيديين والـكافورية وسائر الأولياء والـكتاب^(١) .

وبما يدل على اهتمام كافور بثبوت الأشراف في مصر هذه الحكاية التي نروها عن ابن سعيد^(٢) الذي يقول إن كافور كان راكباً في موكبه فسقط سوطه فنأوله إياه أحد الأشراف^(٣) . فقبل كافور يده وقال له : نعت إلى نفسي فما بعد أن ناولني ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم سوطي غاية يستشرف لها ، .

وبما أثر عن كافور أن امرأة اعترضته في طريقه وصاحت به : ارحمني يرحمك الله ! ، فدفعها أحد رجاله دفعاً عنيفاً ، فسقطت . فغضب كافور غضباً شديداً ، وأمر بقطع يد هذا الرجل ، فشغقت له المرأة . فأمر كافور أحد رجاله أن يسألها عن أهلها ونسبها . فأتضح أنها علوية . فأسف كافور على ما حدث ثم أغدق الهبات والأرزاق عليها وعلى غيرها من نساء الأشراف^(٤) .

* * *

(١) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٢٧

(٢) ص ٤٧

(٣) ذكر السيوطي في كتابه حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة (ج ٢

ص ١١) أن هذا الشريف هو أبو جعفر مسلم العلوى

(٤) ابن سعيد ص ٤٨

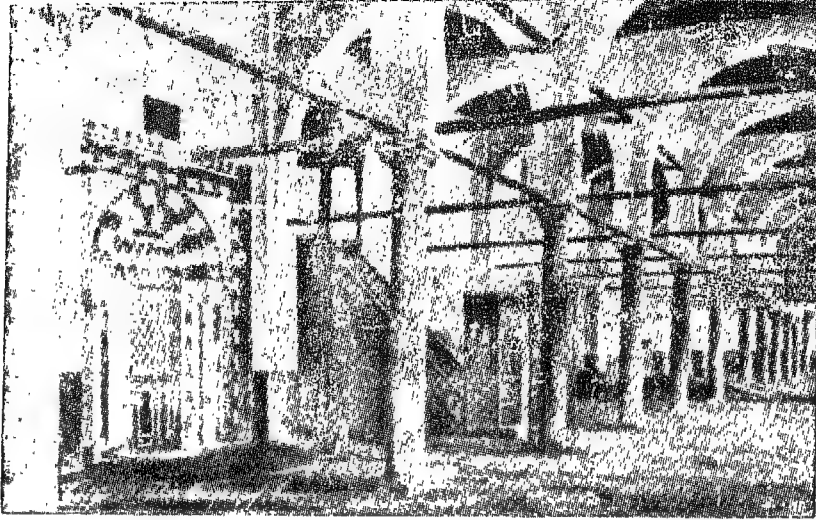
لما تم للفاطميين فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ (سنة ٩٦٩ م) أخذ جوهر في بث الدعوة للخليفة الفاطمي خاصة ولأهل بيته من العلويين عامة . على أنه لم يوفق في تنفيذ هذه السياسة توفيقاً تاماً . فقد كان السواد الأعظم من المصريين يهتق المذهب السني ، في حين كان الشيعة أقلية صغيرة بالنسبة إلى أهل البلاد .

وبعد أن فرغ جوهر من وضع أساس مدينة القاهرة أمر بإلغاء الخطبة للعباسيين وإقامتها للمعز الفاطمي ، كما أمر بأن تضرب السكة باسم الخليفة الفاطمي ومنع لبس السواد شعار العباسيين ، وقرر لبس الملابس البيضاء وحرم على الناس قراءة التسميح « سبح باسم ربك » في صلاة الجمعة ونهى عن التكبير بعد الصلاة وكان من العادات المألوفة عند السنيين ^(١) .

وكانت الدعوة للمذهب الفاطمي تقام في مصر في عهد جوهر في المساجد ، وبخاصة في جامع عمرو وجامع ابن طولون والجامع الأزهر الذي بناه جوهر عقب الفتح ، كما كانت الدعوة لهذا المذهب تذاق على يد داعي الدعوة ومن كان يعاونه من الدعاة .

لم يكن الغرض من بناء المساجد في مصر مقصوداً على الأغراض الدينية وحدها ، فقد كان بناؤها لأسباب سياسية أيضاً . ومن ثم أصبحت المساجد مركزاً للثقافة الإسلامية ، ومثابة لاجتماع العلماء والفقهاء ، ومكاناً لإذاعة الأخبار الهامة . ولما كان الغرض الأول الذي كانت ترمى إليه سياسة الفاطميين في مصر هو جذب الناس إليهم وإدخالهم في حظيرة مذهبهم ، فإنهم لم يألوا جهداً في بث تعاليم هذا المذهب في نفوس المصريين واتخاذهم ذلك وسيلة للوصول إلى أغراضهم السياسية .

(١) المقرئى : اتعاظ الحنفاء ص ٧٨



جامع عمرو بن العاص

وكان في مصر عندما فتحها الفاطميون مسجداً هما جامع عمرو في مدينة
الفسطاط مركز الحركة التجارية وموطن الأهلين ، وجامع ابن طولون في
القطائع . وسرعان ما بنى جوهر الجامع الأزهر في القاهرة حاضرة الفاطميين
الجديدة . لذلك نرى أن تتكلم عن بث الدعوة الفاطمية في كل من هذه
المساجد الثلاثة ، انزى إلى أى حد نجح الفاطميون في هذا السبيل .

خطب للمعز في جامع عمرو في التاسع عشر من شعبان سنة ٣٥٨ هـ (سنة
٩٩٦ م) بعد استيلاء جوهر على الفسطاط بأيام قليلة^(١) . وكان ذكر المعز
في خطبة الجمعة بدل اسم الخليفة العباسي حادثاً هاماً في تاريخ مصر^(٢) فقد
شاد الخطيب في خطبته بفضائل العلويين - الأئمة الصالحين - الذين انتهك

(١) ابن خلكان ج ١ ص ١٤٩

(٢) الدكتور حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ١٢٠

الخارجون من السنين حتمهم^(١) . وبدأ النزاع الديني بين الشيعة والسنة بصورة أشد عداً مما كانت عليه في الأزمان السالفة . فأخذ كل حزب في أعين الآخر والخط من قيمته . وفي يوم الجمعة الثامن عشر من ذي القعدة سنة ٣٥٨ هـ دعا الخطيب لآل البيت ، وزاد في الخطبة العبارة الآتية : « اللهم صل على المصطفى ، وعلى علي المرتضى ، وعلى فاطمة البتول ، وعلى الحسن والحسين سيلى الرسول الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيراً ، اللهم صل على الأئمة الراشدين آباء أمير المؤمنين الهادين المهديين ،^(٢) . وفي رمضان سنة ٣٥٩ هـ أمر جوهر بأن تنقش جدران جامع عمرو باللون الأخضر شعار العلويين .

وقد تطورت الدعوة الشيعية في جامع ابن طولون في ولاية القائد جوهر في شهر ربيع الثاني سنة ٣٦٦ هـ . فقد كان الأذان بمصر كأذان أهل المدينة وهو « الله أكبر الله أكبر ، وظل الحال على ذلك حتى قدم جوهر مصر . فلما كان يوم الجمعة ٨ جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ صلى جوهر في جامع ابن طولون وخطب عبد السميع بن عمر الخطيب العباسي وأذن المؤذنون ، حتى على خير العمل ، وهى من العبارات المألوفة عند الشيعة .

وقد انتقلت هذه العبارة من جامع ابن طولون إلى جامع العسكر ، ومنه إلى جامع عمرو . ويحدثنا المقرئى أنه حضر الصلاة في جامع ابن طولون في هذا اليوم عدد غير قليل ، وأن عبد السميع الخطيب العباسي قد شاد في خطبته

(١) من خطبة هبة الله بن أحمد التي ألقاها في الجامع العتيق في ٢٠ شعبان سنة ٣٥٨ هـ ، المقرئى : انماظ الحنفا ص ٧٥ — ٧٦

(٢) المقرئى : انماظ الحنفا ص ٧٧ ، وأبو المحاسن ج ٢ ص ٤٠٨ ، ابن خلكان ج ١ ص ١٢٠



جامع أحمد بن طولون

بذكر أهل البيت وعدد آثارهم ، كما أنه دعا للقائد جوهر الذي لم يقر الخطيب على ذكر اسمه في الصلاة بحجة أن مولاه المعز لم يأمر بشيء من ذلك^(١) .

أما الجامع الأزهر فقد جعله الفاطميون مركزاً لبث عقائد مذهبهم واجتماع أشياعهم . وقد أقيمت الصلاة فيه لأول مرة في ٧ رمضان سنة ٣٦١ هـ ، ولم يزد جوهر شيئاً جديداً في الأذان والخطبة في هذا الجامع على ما أدخله عليهما في جامعي عمرو وابن طولون . واستمرت الحال كذلك حتى جاء المعز ، فتطورت الدعوة الفاطمية في الأزهر تطوراً عظيماً . فقد أمر الخليفة الفاطمي بأن تنقش العبارة الآتية على جدران مصر القديمة وهي وخير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ،^(٢) . وفي المحرم سنة ٣٦٣ هـ (سنة ٩٧٣ م) أقام الخليفة المعز صلاة الجمعة في مصلى القاهرة التي أنشأها جوهر في رمضان سنة ٣٥٨ هـ خارج باب النصر . وأدخلت على الدعوة الشيعية مظاهر جديدة في الجامع الأزهر . فقد كان السنيون يكبرون على الميت أربعا فقط ، فأمر المعز بالتكبير على الميت على حسب مكانته مقتضياً في ذلك أثر علي بن طالب . ولما مات أحد بني عم المعز صلى عليه هذا الخليفة في الجامع الأزهر وكبر عليه سبعة وكبر على ميت آخر خمسا^(٣) .

ولما وصل المعز إلى مصر وصرف جوهر عن ولايتها قام المعز بنفسه بنشر هذه الدعوة ، ثم تولاهما الخلفاء الفاطميون من بعده . وقد استعان الفاطميون في نشر مذهبهم بالدعاة الذين كانوا يدعونهم في جيوشهم لبث الدعاية باسمهم . وكانت الدعوة للذهب الفاطمي ، بعد الفتح ، تذاع على يد داعي الدعاة ، وكان من كبار الموظفين . وقد خصص له المعز مكاناً في قصره

(١) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٢٧ .

(٢) المقرئى : انماظ الحنفا ص ٩٠ .

(٣) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٣٥٣ .

ولا يفوتنا أن من أهم أغراض السياسة التي انتهجها جوهر في مصر هي نشر الدعوة الفاطمية باسم مولاه المعز . ولما نشك في أن جوهر قد استعان بطائفة من الدعاة وأنه قد عين لهم رئيسا هو داعي الدعاة ، كان مركزه الجامع الأزهر . ولا غرو فإن الفاطميين لم يهتموا اهتماما كبيرا ببث دعوتهم في المساجد الأخرى بجامع عمرو وجامع ابن طولون التي يؤمهما السفنيون . ولما بنى جوهر القصر لمولاه المعز اتخذ المعز ليكون مقرراً لداعي الدعاة .

وكان يساعد داعي الدعاة في بث التعاليم الفاطمية اثنا عشر نقيباً ، كما كان له نواب ينوبون عنه في سائر البلاد المصرية ، ويحضر إليه فقهاء الدولة يتلقون منه الأوامر ، ويقدمون إليه في يومى الاثنين والخميس محاضراتهم عن أصول المذهب الشيعي ، فيعرضها الداعي بنفسه قبل إلقاءها على الخليفة فيقر ما يقبله منها ويذيله بامضاءه ، ثم يردّها الداعي إليهم .

وكان داعي الدعاة يعقد المجالس في مكانين كبيرين من قصر الخليفة . فكان يجلس على كرسي الدعوة في الديوان الكبير ، ويبدأ بمحاضرة الرجال ، ثم يعقد للنساء مجلساً خاصاً يعرف بمجلس الداعي . وفي هذين المكانين كان يحاضر الناس ويلقنهم عقائد المذهب الشيعي . فإذا ما فرغ داعي الدعاة من إلقاء محاضراته على الحاضرين ساروا إليه لتقبيل يده ، فيمسح على رؤوسهم بالجزء الذي عليه إمضاء الخليفة . وكان داعي الدعاة يجمع النجوى^(١) من الإسماعيلية أثناء انعقاد هذه المجالس . وكان كل من يدفع من سرقة الإسماعيلية ثلاثة وثلاثين ديناراً وثلثي دينار يعطى رقعة مذيلة بإمضاء الخليفة فيها : بارك الله فيك وفي مالك وولدك ودينك ، فيدخرها ويفخر بها .

وكان داعي الدعاة يواظب على الجلوس في القصر لإلقاء محاضراته . وكان يفرد لآل على مجلساً ، وللخاصة وشيوخ الدولة مجلساً ، وللأمة والنازحين إلى

(١) النجوى : الصدقة وهي عبارة عن ثلاثة دراهم وثلث .

مصر من البلدان الأجنبية مجلساً ، وللحرم وخواص نساء القصور مجلساً ، كما كان النساء يحضرن في الجامع الأزهر^(١) .

وكان في قصر الخليفة مجموعة عظيمة من المكتب ، الغرض منها نشر عقائد الفاطميين وتلقيها للناس . ولا غرو فقد عني الفاطميون عناية خاصة بازدياد عدد المكتب في المذهب الشيعي ، حتى كانت مكتبة القصر في القاهرة تنافس غيرها من المكتبات في العالم الإسلامي^(٢) .

ولم تقتصر أعمال الفاطميين في نشر دعوتهم على الإشادة بمحمد آل البيت ، بل عملوا أيضاً على الخط من شأن الخلفاء الراشدين الثلاثة ، وهم أبو بكر وعمر وعثمان ، ثم شأن الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس والصحابه الذين لم ينهروا علياً ولم يقولوا بأحقية في الخلافة بعد الرسول عليه الصلاة والسلام . بل اعتبروا هؤلاء خارجين على الدين والدولة . ومن ثم نرى فضائل علي وأولاده من بعده تنقش على السكة وعلى جدران المساجد في مصر وفي البلاد التي كانت تحت سلطانها . كما نرى الخطباء في عهد الفاطميين يلعنون الصحابة على كافة المنابر حتى لقد ألزم جميع الموظفين المصريين أن يعتنقوا المذهب الفاطمي ، كما حتم على القضاة أن يصدروا أحكامهم وفق قوانين هذا المذهب . وليس بعيداً أن تكون الرغبة في الحصول على مناصب الدولة هي التي دفعت بفريق من السفينين إلى التحول إلى المذهب الشيعي .

النظام الإداري في مصر في ولاية جوهر :

كان من سياسة جوهر أن يحمل المغاربة الشيعيين محل المصريين السنيين في المناصب الهامة . ولا غرو فقد رأى أنه من الطبيعي أن تؤول أكثر مناصب

(١) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٩٣١

(٢) ابن خلدون ج ٢ ص ١٤٦

الدولة إلى أنصاره من المغاربة الذين قامت على أكتافهم الدولة الفاطمية . وكما حدث ذلك في الدولة العباسية ، فقد كانت المناصب الهامة في الدولة تسند إلى الخراسانيين لما بذلوه من المساعدة في إقامة دولتهم . وقد بدأ جوهر في تنفيذ سياسته بأن عمل على محو كل أثر من آثار المذهب السني سواء كان ذلك من الوجهة الدينية أو المدنية ، ناظرا إلى معتنق هذا المذهب نظرة الخارجين على الدين .

وكان جوهر ينوب عن الخليفة المعز في إدارة شئون هذه البلاد . وكان في سياسته شيء كثير من الحكمة وبعد النظر . فقد أفسح المجال أمام المغاربة ، لكي يستطيعوا الإلمام بالنظم الإدارية التي كانت تسير عليها الحكومة المصرية في عهد الإخميميين . ويوضح لنا المقريزي هذه السياسة بقوله : إن جوهر أ لم يدع عملا إلا جعل فيه مغربيا شريكا لمن فيه ،^(١) .

وقد رأى جوهر أن ينفذ سياسته تدريجيا ، حتى لا يثير شعور السنيين الذين كانت إليهم إدارة أمور الدولة ، فتمتعطل الأعمال الإدارية ويضطرب حبل الأمن والنظام في البلاد . وقد نجح جوهر في سياسته ، بحاجا كان من أثره أن أصبحت أمور الدولة على اختلافها في أيدي الشيعة في سنة ٣٧٩ هـ أى بعد الفتح بنحو عشرين سنة . ولم يبق في أيدي السنيين إلا القليل من مناصب الدولة مما ليس له أهمية أو خطر . وقد حتم جوهر على جميع موظفي الدولة أن يسيروا وفق أحكام المذهب الشيعي ، مذهب الدولة الحاكمة . وكان الفاطميون يعاقبون بالعزل كل من يعرف بالهوادة في تنفيذ هذه الأحكام . وبذلك انتشر المذهب الشيعي في مصر بين الموظفين السنيين خشية الاضطهاد أو رغبة في الوصول إلى المناصب العالية في الدولة ، وحذا حذوهم في ذلك غير المسلمين من النصارى واليهود .

(١) المقريزي : انعاظ الحنفيا ص ٧٨

وفي أوائل سنة ٣٦٣ هـ تغيرت إدارة المناصب في مصر تغيراً عظيماً . فقد كانت دار الشرطة — بعد أن فتح العرب مصر — في مدينة الفسطاط ، فلما تأسست مدينة العسكر بنيت فيها دار أخرى للشرطة أطلق عليها دار الشرطة العليا ، كما أطلق على الأولى دار الشرطة السفلى ، فلما استولى الفاطميون على مصر جعلوا مقر الشرطة العليا في القاهرة ^(١) . وقد ذكر ابن دقماق ^(٢) أن صاحب الشرطة قد توفي في نفس اليوم الذي وصل فيه جوهر مصر . فأُسندت إلى جبر ، وبقيت دار الشرطة السفلى في الفسطاط وتقلدها عروبة ابن إبراهيم وشبل الممرضى ^(٣) . وقد صرف المعز بن عبد السميع عن الخطابة بعد أن تقلدها أربعاً وستين سنة ، وأُسندتها إلى جعفر بن الحسن ابن الحسيني في جامع عمرو ، كما أسندت إلى أخيه في الجامع الأزهر في سنة ٣٧٩ هـ ^(٤) . وتقلد بيت المال محمد بن الحسين بن مذهب ، وهو لاء كلهم من المغاربة الشيعة .

وكانت أم الأعمال الإدارية التي تقلدها الشيعة هي جباية الخراج ، والوزارة ، والقضاة ، والحسبة .

كان أول ما اهتم به جوهر عقب الفتح هو العمل على تخفيف وطأة القحط والجماعة التي انتابت البلاد . فقد أنشأ عزاناً عاماً للحبوب عهد برقاته إلى المحتسب . وكانت مهمته منع احتكار الحبوب .

كان يتولى جباية الخراج في مصر حين فتحها جوهر ، علي بن يحيى بن العرم . فأقره جوهر في منصبه . ولم يكدهمضى شهر على ذلك حتى أشرك

(١) ابن ميسر ص ٤٥ .

(٢) ج ٤ ص ١١ .

(٣) المقرئى : انماظ الحنفا ص ٩٥ .

(٤) الخطاط ج ٢ ص ٩٩ .

معه رجاء بن صولاب . ويغلب على الظن أن ابن صولاب هذا كان مغربيا ، وذلك تبعا للسياسة التي سار عليها جوهر من إسناد المناصب العالية للمتشيعين من المغاربة وإحلالهم محل الموظفين السنيين . إلا أن موطنى الخراج لم يلبثوا أن أصبحوا تحت إشراف يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن ، فصرفا ابن العرمم وابن صولاب عن مناصبهما وجعلا جباية الخراج قسمين : أحدهما فى يد على بن طباطبا وعبد الله بن عطاء الله ، وثانيهما فى يد الحسن بن عبد الله والحسين بن أحمد الروذبارى .

وقد ذكر المقرئى^(١) أن جوهر ا جى خراج مصر فى السنة الأولى من ولايته ٤٠٠٠ و ٣٠٠٠ دينار . وكان هذا المقدار قد نقص كثيرا فى أواخر أيام كافور حين انتاب مصر القحط وعمها الوباء على أثر انخفاض النيل مدة تسع سنوات (٣٥١ - ٣٦٠ هـ) . ولم تلتئم المجاعة إلا بعد شهر اكتوبر سنة ٣٦٠ هـ (سنة ٩٦٩ م) أى فى أوائل دخول الشتاء . ومن ثم بدأت البلاد تسترد نشاطها .

وقد عهد الممزن إلى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن بوضع نظام جديد للضرائب بدل النظام القديم ، فجمعت أقسامه المختلفة فى مكان واحد . كما عمل نظام جديد لتقدير الأملاك وتحديد الضرائب التى كانت تفرض على كل منها ، فوضعا نظاما دقيقا لجباية الضرائب على اختلاف أنواعها . وقد اهتمت الحكومة بتحصيل ما تأخر منها ، كما عنيص بدراسة الشكايات التى كانت تقدم اليها فيما يختص بجباية الضرائب . وسلمت فى تنفيذ النظام الجديد ، سبيل الحزم ، فحمت دافعى الضرائب من اشتطاط همال الجباية بهم . فكان من أثر هذه الخطة الحكيمة أن زادت موارد البلاد زيادة عظيمة .

ويذكر ابن ميسر أنه قد بلغ ما كان يستخرج من القسطاط فى يوم واحد

(١) الخطط ج ١ ص ٩٩

مقدار يتراوح بين ٥٠.٠٠٠ و ١٢٠.٠٠٠ دينار، وأنه قد استخرج من تقيس ودمياط والأشمونين في يوم واحد أكثر من ٢٢٠.٠٠٠ دينار . وهذا بعيد كل البعد عن الحقيقة ، إذ لو كان المتوسط ١٩٠.٠٠٠ دينار في اليوم لبلغ في السنة ٣٦ مليوناً من الدنانير^(١) . وهذا شيء كثير لم تبلغه جبابة مصر في عهد الغاطميين . والذي يغلب على الظن أن هذه الآلاف إنما هي دراهم لا دنانير .

وكان يتقصد منصب الوزارة ، عند فتح مصر على يد جوهر ، الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات ، الذي تولى هذا المنصب مدة طويلة في عهد العباسيين والإخشيديين . وكان سنياً غالباً . وقد أبى جوهر في بادىء الأمر أن يلقبه بالوزير وامتنع عن مخاطبته بهذا اللقب ، وقال : ما كان وزير خليفة^(٢) . إلا أنه قد أقره في منصبه ، متمشياً في ذلك مع سياسته العامة في هذه البلاد . ولم يبق لابن الفرات من منصبه إلا الاسم فقط ، فقد عين جوهر خادماً يبيت مع جعفر في داره ويلبسه في غدوانه وروحاته ويراقبه في حركاته وسكناته^(٣) . ومن ثم ضحك نفوذ هذا الوزير إلى حد كبير . ويحدثنا ياقوت أن جعفر بن الفرات اعتذر عن البقاء في دست الوزارة بعد وصول المعز إلى مصر^(٤) .

لما علم جعفر بقرب وصول المعز إلى مصر أبى أن يستقبله في الاسكندرية

(١) ابن ميسر ص ٤٦

(٢) المقرئى : اتعاظ الحنفا ص ٧٠ ، ابن خلكان ج ١ ص ١١٩

(٣) المقرئى : اتعاظ الحنفا ص ٨٥

(٤) إرشاد الأديب : ج ٢ ص ١٢

فرأى كبار السنين في ذلك إحراجا لمركزهم، وفرصة يستغلها المعز لاضطهادهم وأخذهم بالشدّة والعنف. ومن ثم طلبوا إلى جعفر أن يستقبل الخليفة حتى لا يتعرضوا لحنقه وسخطه. فأذن جعفر لطلبهم، وخرج لاستقبال المعز في الاسكندرية.

ولسنا نشك في أن المعز قد اتصل بمسامحه ما كان من أمر هذا الوزير وإبائه الذهاب لاستقباله فأمرها في نفسه. وقد قيل إن المعز سأل ابن الفرات وأحج الشيخ؟ فقال: نعم. فقال الخليفة: وزرت قبر الشيخين (أبو بكر وعمر)؟ ولما رأى جعفر بذكاته ودهائه أن المعز قصد بهذا السؤال إحراجا، والإيقاع به، أجابه على الفور: «شغلني عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما شغلني أمير المؤمنين عن السلام على ولي العهد، السلام عليك يا ولي عهد المسلمين ورحمة الله وبركاته». وكان من أثر هذا الجواب الحكيم أن عرض المعز على جعفر منصب الوزارة، فاعتذر عن قبوله. فطلب إليه المعز البقاء في مصر بعد اعتزاله منصبه حتى يكون على مقربة منه لاستشارته في الأمور الهامة التي تعرض له.

وتقلد منصب الوزارة من بعده يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسين. وقد عهد إليهما المعز بإدارة كافة شئون الدولة الحربية والمدنية، كما قلدهما في ١٤ المحرم سنة ٣٣٥ هـ الخراج والحسبة والسواحل والأعشار^(١) والجواري^(٢) والأحباس^(٣) والمواريث والشرطتين^(٤). ولا شك في أن إسناد هذه الأعمال

-
- (١) الأعشار: فرضتها عمر بن الخطاب بأدى الأمر على التجار غير المسلمين.
 (٢) الجواري: هي عبارة عن اختيار الأحسن من كل شيء، سواء من المماتل سكات أو الشاة.
 (٣) الأحباس: هي كل ما يوقف على جهة من جهات الخير، ويصرف ما يتحصل من أموالها، حسبما أراده الواقف.
 (٤) ابن خلسكان ج ١ ص ٤٤٠

الإدارية الكبرى لإيهما قد قوى نفوذهما وأثر على السلطة التي كان يتمتع بها جرهر من قبل. على أن ابن كاس قد أولى ابن الفرات ثقته التامة وهول عليه في محاسبة المال. فكان ابن الفرات يختلف إليه ويتناول الطعام عنده. وثوقت أواصر الصداقة بينهما، ولا سيما عند ما تزوج أبو العباس الفضل بن الوزير ابن الفرات بابنة الوزير ابن كاس.

ولم تنته حياة هذا الرجل العظيم بعزله من منصبه في عهد المعز، فقد تولى الوزارة في عهد الخليفة العزيز بالله (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ) سنة كاملة (١). كما تقلد الخراج في سنة ٣٨٢ هـ بعد أن اتهم العزيز وزيره أبا الحسين بن هلى بن عمر العداس بتبديد أموال الدولة وقبض عليه. وفي ربيع الأول سنة ٣٨٣ هـ أسندت الوزارة إليه ثانية فظل فيها سنة واحدة وتوفي هـ. هذا الوزير سنة ٣٩١ هـ (٢) بعد أن تقلد الوزارة في عهد العباسيين والإخشيديين والفاطميين.

* * *

كان قاضى القضاة في مصر، عند ما دخلها الفاتحون بقيادة جوهر، أبو الطاهر، وهو من قضاة المصريين السنيين، وكان قد تولى منصبه هـ. هذا منذ شهر ربيع الأول سنة ٣٤٨ هـ. فرأى جوهر أن عزله وإحلاله قاض من الشيعة محله قد يجر إلى غضب المصريين وسخطهم. فأقره في منصبه لغرض سياسى فحسب، وعمل في الوقت نفسه على إضعاف نفوذه إلى حد بعيد.

ولما وصل المعز إلى مصر خف الناس لاستقباله ونزل الركب عن مطيهم وقبلوا الأرض بين يديه عدا أبا الطاهر فانه ظل راكباً حتى قرب منه المعز

(١) المقرئى : الخطوط ج ٢ ص ٨٤

(٢) ابن خلكان : ج ٢ ص ١٣٩

فترجل وسلم عليه ولم يقبل الأرض ، فلغت ذلك نظر المعز ، وسأل أحد حجاجه عن الرجل الذى خالف الناس كلهم ، فعلم منه أنه قاضى مصر . ولما لام الناس أبا الطاهر على ذلك ذكر قوله تعالى (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون)^(١) .

أقر المعز أبا الطاهر فى منصبه جرياً على نفس السياسة التى اتبعها جرهر منذ أن فتح هذه البلاد . وليس بعيداً أن يكون المعز قد أقر أبا الطاهر فى منصب القضاء لما رآه من ذكائه وحضور بديته . فقد ذكر المقرئى أن المعز حين قدم مصر سأل أبا طاهر : « كم رأيت من خليفة ؟ » فأجابته على الفور « مارأيت خليفة غير مولانا المعز لدين الله صلوات الله عليه ، فاستحسن المعز ذلك منه ، مع علمه بأن أبا الطاهر رأى المعتضد والمستكفى والمقتدر وغيرهم من الخلفاء العباسيين .

إلا أن سلطان أبي الطاهر قد اضمحل والزمه المعز أن يصدر أحكامه وفق عقائد المذهب الشيعى^(٢) . بل زاد على ذلك فاشرك معه أبا سعيد بن أبى ثوبان المغربى فى شوال سنة ٣٦٢ هـ^(٣) وأسند اليه النظر فى المظالم الخاصة بالمغازبة . وما لبثت سلطنته أن قويت حتى أصبح ينظر أيضاً فى القضايا المشتركة بينهم وبين المصريين ، ثم اشتد نفوذه حتى آل إليه النظر فى قضايا المصريين أنفسهم ، وأصبح يطلق عليه اسم قاضى مصر والاسكندرية^(٤) . وفى سنة ٣٦٣ عين المعز قاضياً آخر من الشيعة ، هو على بن أبى حنيفة

(١) الكندى ص ٣٨٧

(٢) الدكتور حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ١٩٠ نقلا عن المقفى الكبير للمقرئى بليدين .

(٣) الكندى ص ٥٨٤

(٤) ابن ميسر ص ٤٤ ، المقرئى : انعاظ الخلفاء ص ٩٣

النعمان المغربي ، فقامم أبا الطاهر القضاء . فكان يجلس ابن النعمان للقضاء في جامع عمرو ، وأبو الطاهر في الجامع الأزهر . وظلت الحال كذلك حتى استقل على بن النعمان بالقضاء عامة في شهر صفر سنة ٣٦٦ هـ على أثر استقالة أبي الطاهر لشيخوخته وضعفه . وقد بدا ذلك الضعف عليه على أثر إصابته بفالج أبطل شقه مما جعل العزيز يقول بعد أن رآه على هذه الحالة : ما بقي إلا أن يقدوه (١) ، وأعلن تقلد على بن النعمان منصب القضاء على منبر الجامع العتيق .

وقد ظل أولاد النعمان يتقلدون هذا المنصب حتى سنة ٣٩٨ هـ . فقد تقلد الحسين بن النعمان القضاء في مصر وما يتبعها من الأعمال في شهر صفر سنة ٣٩٣ هـ وأسندت مقاليد الدعوة لقاضي القضاة للمرة الأولى ، فغدا يطاق عليه قاضي القضاة وداعي الدعاة .



كان المحتسب إلى أول عهد الفاطميين سنيا ، فأقاله جوهر على أثر الفتح وعين مكانه رجلا من المغاربة ، وذلك في ربيع الثاني سنة ٣٥٩ هـ . وقد ثار الصيارفة على المحتسب الجديد ، لأنه أنب جماعة منهم ، فاحتج الباقون وصاحوا : « معاوية خال على بن أبي طالب » . وذكر المقرئ (٢) أن الصيارفة قد شغبوا عند ما علموا عزم جوهر على حرق رحبتهم ، ولكنه عدل عن ذلك خوفا على الجامع . ولما توفي المحتسب المغربي تولى الحسبة سليمان بن هشرة الذي حدث هذا الشغب في ولايته الثانية على الخراج .

وقد ارتقى نظام الحسبة في عهد الفاطميين . فكانت أعمال المحتسب

(١) السكندی : ص ٨٥

(٢) المقرئ : اتعاظ الخفنا ص ٨٧

واسطة بين القاضى وصاحب النظر فى المظالم . وكان ينتخب من أهياى المسلمين . ولاهرو فقد كان منصب المحتسب من المناصب الدينية الهامة . فكان لىله الإشراف على الأسواق ، والمحافظة على الآداب ، واستيفاء الديون ، ومراقبة الموازين والمكاييل ، وكان لها دار خاصة بعمار فيها (١) . فكان المحتسب يطلب جميع الباعة إلى هذه الدار فى أوقات معينة ، ومعهم موازينهم وصنجمهم ومكاييلهم ، حيث يعايرها ، فإن وجد فيها نقصاً أبادها وألزم صاحبها بشراء غيرها . ثم تساهل معهم ، فسكان يلزم من وجد فى ميزانه خللاً أو فى صنجه نقصاً بإصلاحه . وقد ظلت هذا الدار طوال عهد الدولة الفاطمية ثم الأيوبية (٢) .

وكان المحتسب نواب ينوبون عنه فى القيام بهذه الأعمال فى مصر وغيرها من البلدان . وكان هؤلاء النواب يطوفون على أرباب الحرف ، ويلاحظون الطرق العامة ، ويفتشون قدور الطعام ، ويختمون اللحوم ، ويباشرون بحال الجزارة ، ويلزمون رؤساء السفن ألا يحملوا أكثر مما يجب حملة ، ويأمرون السقائين بتغطية قريهم ومراعاة هيارها . ويمنعون معلمى السكتائين من ضرب الأطفال ضرباً مبرحاً ، ويحذرون معلمى السباحة من التفرير بالصغار .

وكان المحتسب يجلس للفصل بين الناس فى جامعى عمرو والأزهر . وقد اتسعت سلطته وزاد خطرهما ، حتى كان لواماً على رجال الشرطة القيام بتنفيذ أحكامه . وكان يتقاضى راتباً شهرياً قدره ثلاثون ديناراً .

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية : ص ٢٢٧ — ٢٣٠

(٢) المقرئى : الخطوط ج ١ ص ٤٦٣ — ٤٦٤ . ابن خلدون : مقدمة ص

وقد ثار المصريون لما ارتكبه المغاربة من أعمال العنف والشدّة ، وما كان منهم من نهب بيوت الأهلين وإجلائهم عنها . إلا أن جوهر أقد وضع بحسن سياسته حداً لما أتاه هؤلاء المغاربة من الفوضى وما أثاروه من القلاقل فأمر بقتل جماعة منهم . ولا شك في أن تشكيل جوهر بهؤلاء المشاغبيين والضرب على أيديهم كان مظهرأ من مظاهر سياسته الحكيمة . وكان غرضه من ذلك أن يوقف المغاربة عند حدهم ، حتى لا تتجدد الثورات التي كان يقوم بها الأهلون دفاعاً عن أموالهم وأرواحهم .

من هنا نرى أن جوهر أقد وضع أساساً صالحاً للسياسة التي جرى عليها الفاطميون في مصر ، فقد أخذ بالشدّة والبطش كل من حاول العبث بالنظام . وقد سار المعز على مثال جوهر حين عاد المغاربة سيرتهم الأولى في سنة ٣٦٣هـ حيث احتلوا دور المصريين في عين شمس ، وجعل لهم والياً وقاضياً للنظر في أحوالهم .^(١) وبذلك تم انفصال المغاربة أنصار الدولة الفاطمية الشيعية عن المصريين السنيين ، وانطفأت نيران الفتن التي طالما كانت تقوم بين الفريقين بسبب اختلاطهم ببعضهم ببعض . ولم نسمع بعد ذلك عن هذه الفتن شيئاً ، اللهم إلا في الاحتفالات الديفية ، كاحتفال باليوم العاشر من المحرم ، ذكرى اليوم الذي قتل فيه الحسين بن علي - رضي الله عنه - بكر بلاه^(٢) .

(١) المقرئى : أتماظ الخنفا ص ٩٦

(٢) المقرئى : نفس المصدر ص ٨٧-٩٤ ابن ميسر ص ٤٥

الباب الرابع

منشآت جوهر في مصر

تأسيس مدينة القاهرة :

كان من أهم ما يرمى إليه ولاية المسلمين في مصر وفي غيرها من البلاد الإسلامية التي فتحوها، أن يؤسسوا قاعدة للمسلمين تسع جندهم وتأوى أنصارهم وتضم جوانبها دواوين حكومتهم ، ثم يبنون فيها مسجداً يقيمون فيه شعائر دينهم . وقد سن هذه السنة ولاية مصر منذ فتحها عمرو بن العاص الذي أسس الفسطاط ، وجاء بعده صالح بن علي العباسي فأسس هو وأبو عون مدينة المسكر ، وأسس أحمد بن طولون مدينة القطائع ، ثم جاء جوهر بنى مدينة القاهرة .

تعتبر مدينة الفسطاط أقدم هذه العواصم ، فقد أسسها عمرو بن العاص بعد أن تم له فتح مصر وأجلى الروم عنها (٢٠ هـ = ٦٤٠ م) . وكان عمرو يريد أن يتخذ الإسكندرية ، وكانت قاعدة هذه البلاد منذ أيام الإسكندر المقدوني (٣٣٠ ق م) ، حاضرة لولايته الجديدة ، إذ كانت عامرة آهلة بالسكان ، وأرسل بذلك إلى عمرو بن الخطاب رضى الله عنه ، فسأل الخليفة رسول عمرو : هل يحول بيني وبين المسلمين ماء ؟ ، قال نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل ، . فكتب إلى عمرو دأى لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف ، فلا تجمعوا بيني وبينكم ماء ، متى أردت أن أركب اليكم راحلتى حين أقدم اليكم قدمت . وأشار عليه باتخاذ مدينة أخرى غير الإسكندرية .

ولا غرو فقد كان عمر بعيد النظر ، لأن العرب لم يكونوا أمة بحرية ،

ومن ثم لم تعد الاسكندرية صالحة لأن تكون حاضرة للديار المصرية . فلم يكن بد إذا من أن تتخذ العاصمة الجديدة إما على البحر الأحمر وإما في مكان تسهل منه المواصلات البرية مع بلاد العرب . ولما كان موضع الفسطاط يقع على الطريق إلى بلاد العرب ، وفي مكان يسهل منه الإشراف على قسمي الديار المصرية شمالا وجنوبا ، اتخذ عمرو حاضرة لولايتيه .

تقع الفسطاط في ذلك الفضاء المتسع الذي عسكر فيه عمرو بجنده عند حصاره حصن بابليون ، والذي لا يبعد كثيرا عن منف عاصمة مصر القديمة ، وكانت فضاء ومزارع بين النيل والمقطم ، ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن بابليون^(١) .

وقد سميت هذه المدينة بهذا الاسم : لأن عمرو بن العاص لما أراد التوجه إلى الاسكندرية لقتال الروم أمر برفع فسطاطه^(٢) فوجد أن يمامة قد باضت فيه ، فأمر عمر بإبقائه كما هو . فلما رجع المسلمون من الاسكندرية سألوا عمرا عن المكان الذي ينزلون فيه فقال : « الفسطاط » إشارة إلى فسطاطه الذي تركه لتبيض اليمامة فيه . وبذلك سميت المدينة كلها « الفسطاط »^(٣) .

شرح عمرو بعد أن فتح مدينة الاسكندرية ونزل بجنده بجوار حصن بابليون في تأسيس مدينة الفسطاط ، فاختر أول جامع بني في مصر ، فسمى الجامع العتيق أو تاج الجوامع ، ثم أطلق عليه بعد ذلك جامع عمرو ، وهو الاسم الذي لا يزال يعرف به حتى اليوم^(٤) ثم اختطت القبائل العربية دورها

(١) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٢٨٩

(٢) خيمته

(٣) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٢٩٦ . وقد قيل في تسمية الفسطاط أقوال

أخرى ليس هنا مجال بحثها .

Lane—Poole : The Story of Cairo, P 24

(٤)

بالقرب من ذلك المسجد . وهكذا أنشئت الفسطاط وبنيت فيها المساكن ونزل بها الناس ، واتسع نطاقها ، وأصبحت حاضرة الديار المصرية ؛ كما أصبحت من أمهات العواصم الإسلامية^(١) .

ولما انتقلت السيادة إلى العباسيين وولى صالح بن علي العباسي ولاية مصر ، رأى أن الفسطاط قد ضاقت بعسكره فأسس مدينة العسكر سنة ١٢٣ هـ (٧٥٠ م) في الفضاء الواقع في الشمال الشرقى لمدينة الفسطاط ، واتخذها حاضرة له . ومن أجل ذلك أطلق عليها اسم العسكر ، وكانت بالنسبة إلى الفسطاط أشبه بفرساي بالنسبة إلى باريس^(٢) . وكان موضعها يعرف في صدر الإسلام باسم الحمراء القصوى ، وهو المكان الذى نزلت فيه ثلاث قبائل من العرب^(٣) عقب الفتح الإسلامى . وقد هجرتها هذه القبائل منذ ذلك الحين فأصبح مكانها قفرا . وفي ذلك المكان أنشئت العاصمة الجديدة ، وهى تمتد من الفسطاط إلى جبل يشكر الذى بنى فوقه جامع ابن طولون .

(١) ظلت الفسطاط مركزا للحركة التجارية عامرة . بالدور آهلة بالسكان حتى دخل مصر عمورى Amalaric ملك بيت المقدس فى سنة ٥٦٣ هـ (سنة ١١٦٨ م) فلم يستطع شاوور وزير الخليفة الفاطمى العاضد الدفاع عنها : لأن المدينة لم تكن على عهدى الأول من القوة ، أضف إلى ذلك خوفه من دخول الفرنجة فيها . فأمر بإحراقها وحرقها . ويقول المقرئى : « دوت شاور إلى مصر بعشرين ألف قارورة نبط وعشرة آلاف مشعل نار قرقت فيها ، فارتفع لهب النار ودخان الحريق إلى السماء ، فصار بمنظر أهولا . فاستمرت النار تأنى على مساكن مصر من اليوم التاسع والعشرين من صفر لتمام أربعة وخمسين يوما .. ومن ثم تحولت مصر الفسطاط إلى الأطلال المبرقة الآن بكيمان (تلأل) مصر » . ولم يتخلف من بقايا تلك المدينة البائدة إلا جامع عمرو وقصر الشمع . (الخطط : ج ١ ص ٣٣٨ —

(٣٣٩)

Lane—Poole : The Story of Cairo p. 65

(٢)

(٣) بنى يشكر ، بنى رويل ، بنى الأزرق (المقرئى : الخطط ج ١ ص ٣٠٤)

وهناك أقام العباسيون دورهم ، واتخذوا مساكنهم . ثم أقام صالح بن علي دار الإمارة وثكنات الجنود وسط هذه العاصمة ، كما اتخذ المنصور من بعده قصر الذهب وسط مدينة بغداد ، حتى لا يكون أحد أبعد إليه من الآخر^(١) . وفي سنة ١٦٩ هـ (٧٨٥ م) أسس الفضل بن صالح أحد ولاة العباسيين مسجد العسكر بجوار دار الإمارة فأصبح من المساجد الجامعة بالديار المصرية . ثم سمح للناس بالبناء حول العسكر ، فكثر فيها العمارة حتى اتصلت بالفسطاط ، وأصبحت مدينة كبيرة بها الشوارع والمساجد والدور والبساتين والأسواق . وهكذا أصبحت العسكر مقر الإمارة والإدارة والشرطة (١٣٢ - ٢٥٤ هـ)^(٢) .

ولكن أهمية العسكر قد قلت كثيراً منذ بنى أحمد بن طولون مدينة القطائع ، فصار يذكر اسم الفسطاط والقطائع وترك اسم العسكر . فأصبحت هذه المدينة كأن لم تكن بالأمس^(٣) .

رأى أحمد بن طولون أن مدينة العسكر قد ضاقت بجنده وخدمه وعبيده ، فسار على سنة عمرو بن العاص مؤسس الفسطاط ، وصالح بن علي العباسي مؤسس العسكر ، في تخطيط حاضرة جديدة تسع جنده وتوفر لهم مرافق الحياة ، فاختار في سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٠ م) المنطقة الواقعة شمال الفسطاط بين جبل يشكر وسفح المقطم قرب دار الإمارة بالعسكر لتأسيس الحاضرة

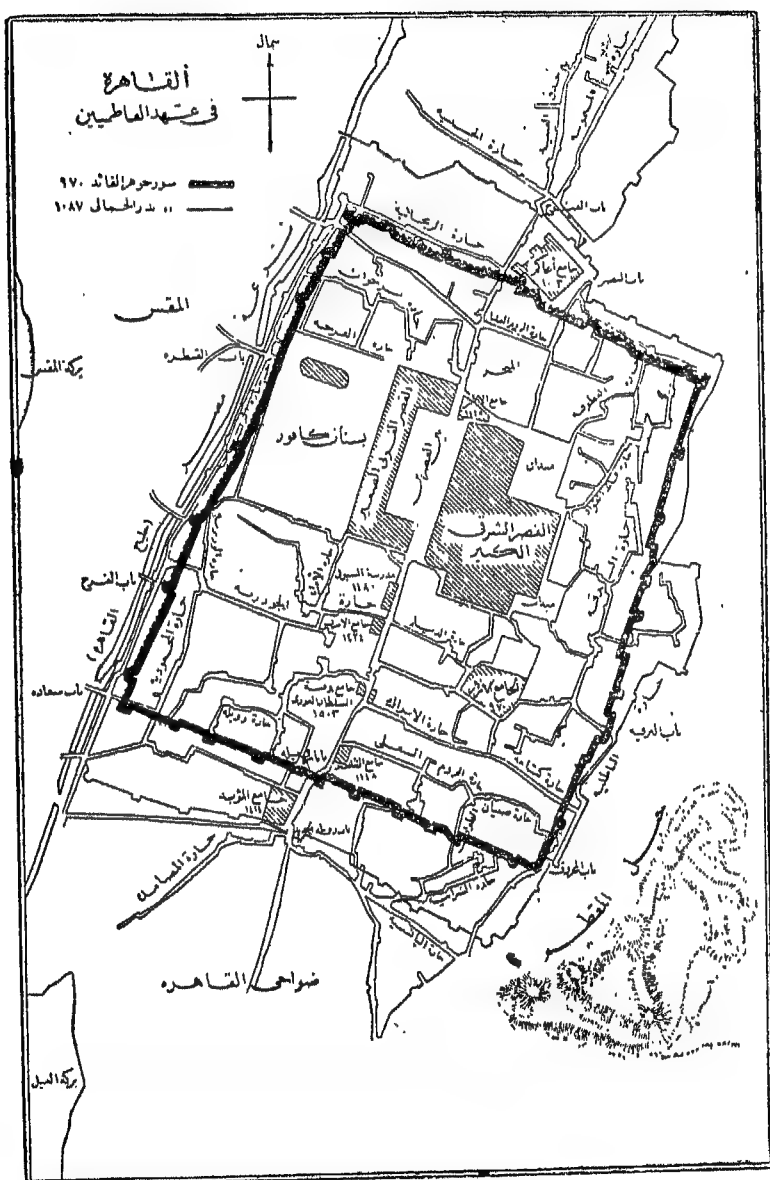
(١) Le Strange : Baghdad during the Abbasid Caliphate, p. 91
(٢) ظل أمراء مصر يقيمون في دار الإمارة في العسكر ، حتى بنى جوهر الصقلي قائد المعز ، مدينة القاهرة .

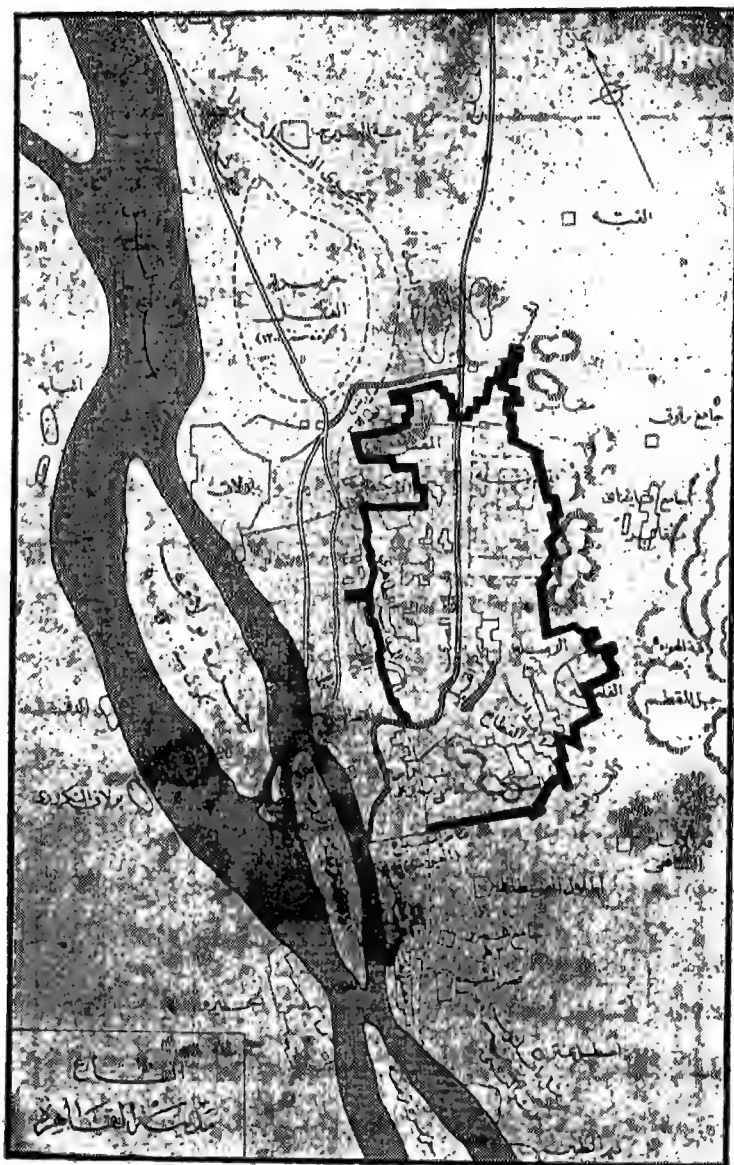
(٣) تخربت مدينة العسكر في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي على أثر المجاعة التي حدثت في ذلك الحين . فإن بدر الجمالي لما حضر إلى مصر وأخذ في تعمير القاهرة من جديد نقل إليها ما كان بالعسكر والقطائع من أنقاض المساكن ، حتى صار مكان هاتين العاصمتين موحشاً مقفراً . ولم يبق عامراً من العسكر سوى جبل يشكر الذي بنى عليه جامع ابن طولون .

الجديدة التي سميت (القطائع) . ويقول المقرئزي^(١) إن مدينة القطائع كانت تمتد من قبة الهواء التي بنيت على أطلالها قلعة الجبل إلى جامع ابن طولون ، ومن الرميطة الواقعة تحت قلعة الجبل إلى مسجد زين العابدين ، وقد قدرت مساحتها بميل في ميل^(٢) .

اتخذ أحمد بن طولون تحت موقع القلعة دارا يقيم فيها تحيط بها حديقة غناء ، ثم أسس مسجده المشهور المعروف باسمه ، وأقام بجواره دار الإمارة ، وجعل فيما بين المسجد والقصر ميذاً فسيحاً كان يلعب فيه ابن طولون وجنده بالنص والاجنة^(٣) ، وقد بلغ من الاتساع مبلغاً عظيماً حتى سمي القصر كله بالميدان . ثم اختط كبار رجال الدولة ابن طولون وقواده وغلماؤه دورهم حول ذلك الميدان ، واتخذت كل طائفة منهم قطيعة^(٤) خاصة بها ، كما جعل للطوائف المختلفة وكذلك الحرف والصناعات والتجار قطائع خاصة . وكانت كل قطيعة تسمى باسم الطائفة التي تسكنها ، فسميت المدينة كلها بالقطائع . ثم أخذ الناس في البناء ، فعمرت المدينة ، وأقيمت فيها الدور الفخمة والمساجد والحمامات حتى اتصلت أبنيتها بالفسطاط . وجاء بعده ابنه خمارويه فوسع القطائع وجعلها « وأقبل على قصر أبيه وزاد فيه ، وأخذ الميدان الذي كان لأبيه فجعله كله يستأنا ، وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر »^(٥) .

-
- (١) الخطط ج ١ ص ٣١٣ ، ابن دقاق : ج ٤ ص ١٢١ و ١٢٢ .
 (٢) ابن دقاق ج ٤ ص ١٢١ . ويقال إن الذي قدر هذه المساحة هو ابن سعيد الأندلسي الذي زار مصر أيام الملك الصالح أيوب .
 والميل ثلث الفرسخ ويقدر بثلاثة أو أربعة آلاف ذراع .
 (٣) المقرئزي : الخطط ج ١ ص ٣١٥ . والمراد بذلك لعبة الكرة المعروفة
 عند الإنجليز والفرنسيين باسم بولو « Polo » .
 (٤) القطيعة : جزء من الأرض .
 (٥) المقرئزي : الخطط ج ١ ص ٣١٦ .





ولما توفي خمارويه (سنة ٢٨٢ هـ و ٨٩٥ م) أخذت الدولة الطولونية في الضعف والانحلال . فبعث الخليفة المسكتفي القائد العباسي المشهور محمد بن سليمان السكاتب لاسترداد مصر . فهزم الأسطول المصري وفر هارون بن خمارويه إلى مدينة العباسية^(١) ، حيث قتله عماء شيبان وعدى ، فلم يرش الجند عن عملهما ، ورفضوا لإقرار تعيين شيبان وكاتبوا محمد بن سليمان . فنزل الفسطاط وسار منها إلى القطائع عاصمة الطولونيين (سنة ٢٩٢ هـ و ٩٠٤ م) وأشعل فيها النار . فالتهمت الدور والمساجد والحمامات والأسواق والبساتين ، وأصبحت تلك المدينة الزاهرة أثراً بعد عين^(٢) .

وهكذا زالت الدولة الطولونية وخربت القطائع وأضحت أطلالا دارسة لم يبق منها غير المسجد الجامع . ومن ثم عادت الفسطاط مقر الإمارة ومركز الإدارة والجند ، فزادت مبانيها وعمرت أرجاؤها . وظلت الحال على ذلك حتى فتح مصر جوهر الصقل قائد جيوش المعز لدين الله الفاطمي وأسس مدينة القاهرة سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) .

تعتبر القاهرة رابعة حواضر مصر الإسلامية . وقد تأسست سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) على أثر دخول جيوش المعز لدين الله الفاطمي بقيادة جوهر وقضائها على الدولة الإخشيدية .

دخل جوهر الصقل مدينة الفسطاط في ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ (١٧ يولية سنة ٩٦٩ م) وعسكر في الفضاء الواقع شمالها . وفي تلك الليلة نفسها وضع جوهر أساس المدينة التي عزم على إنشائها لتكون حاضرة الدولة الفاطمية ، كما وضع أساس قصر مولاه المعز^(٣) وقد اختطت كل قبيلة من

(١) العباسية : بليدة أول ما يلقى القاصد لمصر من الشام .

(٢) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٣٣٢ ، ابن دقاق : ج ٤ ص ١٢١ .

Lane—Poole : The Story of Cairo, p. 118.

(٣)

Migeon : Art Musulman, tome I. p. 44

البربر حول ذلك القصر خطة عرفت باسمها . فاختطت جماعة من بركة الحارة البرقية واختطت الروم حارتين : إحداهما حارة الروم الآن والأخرى حارة الروم الجوانية بقرب باب النصر^(١) .

أسس جوهر مدينة القاهرة لتكون مقراً للملك الفاطميين ومركزاً لنشر دعوتهم الدينية ، ويتخذها حصناً منيعاً لصد هجمات القرامطة الذين بدأوا يهددون حدود مصر الشمالية . أضف إلى ذلك ما كان من زحفهم على بلاد الشام وكانت تابعة لمصر إذ ذاك واستيلائهم على دمشق . ومن ثم لم ير الفاطميون بداً من انقاء شرم ورد غاراتهم^(٢) .

ويكاد يشبه موقف جوهر في عدوله عن اتخاذ الفسطاط أو المعسكر عاصمة له وتفكيره في إنشاء عاصمة جديدة تفي بأغراض الدولة الفاطمية ، موقف المنصور عند ما فكر في بناء بغداد . فقد كانت أمامه عواصم إسلامية عديدة يستطيع أن يتخذ إحداها حاضرة له . ولكنه نظر إلى المدينة فوجد لها انتهاج لأن تكون حاضرة لخلافته ، فقد تغير الزمن وأصبح البيون شاسعين زمن النبي صلى الله عليه وسلم وزمن العباسيين . وألغى دمشق حافلة بذكرىات الأمويين ، كما كانت الكوفة مركز الشيعة ، هواماً مع على وأولاده . أما الهاشمية فكانت قريبة من الكوفة ، وكان المنصور لا يأمن على نفسه المقام فيها ، ولا سيما بعد واقعة الراوندية . فلم يكن بداً من أن يتجه المنصور شرقاً نحو غرب فارس ، حيث كان الأهلون يقدسون ملوكهم في عهد بني ساسان وحيث كان أنصاره ممن قامت الدولة العباسية على أكتافهم^(٣) .

-
- (١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٤١٦ .
 G. Wiet : Précis d'Histoire Musulmane de L'Egypte. 32
 (٢) المقرئ : الخطط ج ١ ص ٤٦١ .
 G. Le Strange : Baghdad during the Abbasid Caliphate, (٣)
 p.p. 1—6.

كذلك فعل كل من قسطنطين والاسكندر من قبله . فقد رأى قسطنطين أن آئيننا لا يصلح لأن تكون حاضرة لدولته لقربها من بلاد اليونان الغربية موطن الديموقراطية وشغب مجلس السناتو ، فحول وجهه نحو الشرق مهد الاستبداد والحكم الفردي القديم ، ورأى أن موقع بينظلة هو المكان الذي يصلح لأن يكون حاضرة للملك ، لأنه يفي بتحقيق أغراضه السياسية والدينية وأما الاسكندر الأكبر فقد اختار موقع مدينة راقودة^(١) لبناء الاسكندرية لتكون حاضرة لدولته وموطنا للثقافة اليونانية ، وذلك لقربها من بلاد اليونان ووقوعها على البحر الأبيض المتوسط واسطة العقد بين دول العالم القديم . هذا إلى أن اليونان كانت أمة بحرية ، ومن ثم كان من الضروري أن تتخذ حواضرها على البحر .

من ذلك نرى أن أول ما كان يتجه إليه نظر أكثر الفاتحين الذين يقيمون دولهم على أنقاض دول أخرى ، أن يتخذوا عاصمة جديدة تفي بحاجات دولتهم الناشئة .

ولما فرغ جوهر من بناء قصر الخليفة وأقام حوله السور ، سمى المدينة كلها بالمنصورية نسبة إلى المنصور أبي المهر ، وظلت هذه التسمية حتى قدم المهر إلى مصر فسمّاها القاهرة^(٢) . وقد اختلف المؤرخون في تسمية هذه المدينة بهذا الاسم : فقال ابن دقاق^(٣) إنها سميت بذلك لأن أساسها شق^(٤) على طلوع كوكب رصده أحد الحكماء السبعة الذين كانوا بديار مصر وهو كوكب

(١) راقودة أو راقوتيس : كانت قرية صغيرة بجوار موقع الاسكندرية الحالي .
المقرئى : الخطاط ج ١ ص ١٤٤ .

(٢) المقرئى : انماط الحنفا ص ٧٣ ، الخطاط ج ١ ص ٣٧٧ ، أبو المحاسن ج ٢ ص ٤١٥ ، ابن دقاق ص ٣٥ .

(٣) الانتصار بواسطة جقد الأمصار ج ٦ ص ٣٥ .

(٤) سفر

يقال له : القاهرة ، . ويقول المقرئى : : إن القائد جوهر لما أراد بناءها أحضر المنجمين وعرفهم أنه يريد عمارة بلد ظاهر مصر ليقم بها الجند ، وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الأساس بحيث لا يخرج البلد عن نسلمهم أبداً ، فاقتاروا طالعاً لوضع الأساس ، وطالعاً لحفر السور ، وجعلوا بدائر السور قوائم خشب ، بين كل قائمتين جبل فيه أجراس ، وقالوا للعالم ، إذا تحركت الأجراس فارموا ما بأيديكم من الطين والحجارة . فوقفوا ينتظرون الوقت الصالح لذلك . فاتفق أن غراباً وقع على جبل من تلك الجبال التي فيها الأجراس فتحركت كلهم ، فظن العالم أن المنجمين قد حركوها ، فألقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة وبنوا . فصاح المنجمون القاهرة في الطالع . ففضى ذلك وفاتهم ما قصدوه . ويقال إن المرنج كان في الطالع عند ابتداء وضع الأساس ، وهو قاهر الفلك ، فسموها القاهرة ، (١) .

ونحن لا نستبعد صحة هذه الرواية ، ولا سيما أن المعز — على ما ذكره ابن القلانسي (٢) — كان مغرباً بعلم النجوم ، وكان يستشير منجمه في كل ما يتعلق بحياته الخاصة وفي أمور الدولة العامة . على أنه يظهر لنا أن هذه الحكاية تمكاد تكون خرافة من تلك الخرافات التي يخلقها الناس ويتحدثون بها عند تخطيط عاصمة من العواصم . فقد ذكر المقرئى نفس هذه الحكاية عند كلامه على بناء مدينة الإسكندرية في عهد الاسكندر .

وقيل أيضاً إنها سميت القاهرة : لأنها تقهر من شذ عنها وحاول الخروج على أميرها . وليس بعيداً أن يكون اسم القاهرة مأخوذاً من قول المعز لجوهر عند مسيره لفتح مصر ولتدخلن في خرابات ابن طولون وتبنى مدينة تقهر الدنيا ، (٣)

(١) الخطوط ج ١ ص ٣٧٧ ، أبو المحاسن ج ٢ ص ٤١٦

(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ١٤ ، أبو المحاسن ج ٢ ص ٤١٦ ، ٤٤١ ، المقرئى :

الخطوط ج ١ ص ٢٥٤

(٣) القلقشندي ج ٣ ص ٣٤٩

تقع القاهرة المعزية^(١) شمال الفسطاط . وكانت وقت إنشائها تمتد من منارة جامع الحاكم إلى باب زويلة ، وكانت حدودها الشرقية هي حدود القاهرة الحالية ، أما الجهة الغربية فلم تتجاوز شارع الخليج^(٢) . وعلى ذلك فهي تحد شمالا بباب النهر ، وجنوبا بباب زويلة^(٣) ، وشرقا بباب البرقية والباب المحروق^(٤) (الدراسة الآن) ، وغربا بباب السعادة و باب الفرج و باب الخوخة .

وتشمل القاهرة المعزية - على ما رواه المقرئى - أحياء الجامع الأزهر والجمالية والحسينية و باب الشمرية والموسكى والغورية و باب الخلق^(٥) . ويقال إن المعز لما قدم القاهرة ورأى أنه لا ساحل لها ، لم يعجبه موقعها ، وقال : يا جوهر فانتك عمارتها ها هنا^(٦) يريد المقس ،^(٧) .

(١) أطلق على المدينة التي بناها جوهر للمعز اسم « القاهرة المعزية » نسبة إلى الخليفة المعز (ابن خلسكان ج ص ١٠٣) ، كما أطلق عليها اسم « القاهرة المحروسة » لارتفاع سورها وضخامة أبوابها .

Lane—Poole : The Story of Cairo p. 128, 127

G. Wiet : Précis d'Histoire Musulmane de L'Egypte. (٢)

(٣) ليس باب زويلة من المدينة التي أسسها جوهر بل هو زيادة حدثت بعد ذلك .

(٤) يلاحظ أن موضع هذين البابين هو غير الموضع الذي كانا فيه أيام جوهر

(٥) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٢٧٣

Lane—Poole : The Story of Cairo,

(٦) المقرئى : اتعاظ الخنفا ص ٧٤

(٧) المقس : ضيعة كانت تعرف بأمر دين واقعة على ساحل النيل ، وقد جعلها

المعز مرفأً صناعياً وأنشأ بها الخليفة الحاكم جامع المقس . وكانت تسمى المكس لإقامة صاحب المكس والعشار فيها ، ثم قلبت فقبل المقس ، والمكس دراهم كانت تؤخذ من بائى السلع فى الأسواق . المقرئى : الخطط ج ٢ ص ١٢١ .

وقد أحيطت القاهرة بسور كبير^(١) من اللبن ، يقدر حجم اللبنة منه ذراع في ثلثي ذراع . وقد ضم ذلك السور بين جوانبه الخطاط إلى تسكونت منها القاهرة المعزية ، وكان بمثابة حصن يتحصن فيه جوهر ضد دجمات القرامطة . وإلى الجنوب الشرقى من ذلك السور تقع مدينة الفسطاط ، وإلى الغرب منه تقع المقس ، وكانت ميناء القاهرة حتى تأسست بولاق^(٢) بعد أن تحول مجرى النيل في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاد . وقد أصبحت بولاق مدينة تجارية منذ ٧١٣ هـ عند ما أمر الملك الناصر بعمارها ، وبني بها الدور على شاطئ النيل فسكنها الناس وعمروها .

وكان اسم القاهرة يطلق على الجزء الواقع بين الأسوار ، بينما كان يعرف الجزء الواقع خارج هذه الأسوار بظاهر القاهرة ، وهو خطط وأحياء جديدة تمتد فيما بين جامع ابن طولون وقلعة الجبل ، وبين جبل المقطم والجهة المقابلة له من ضفة النيل ، وهى المعروفة الآن بأحياء بولاق وشبرا وباب اللوق^(٣) .

وفي ليلة الأربعاء ١٨ شعبان سنة ٣٥٨ هـ وضع جوهر أساس القصر الذى بناه لمولاه المعز ، فى ذلك الفضاء الفسيح بداخل سور القاهرة ، وكان يقع شرقى سور المدينة ، لذلك أطلق عليه اسم القصر الكبير الشرقى . وكان يسمى هذا القصر أيضاً القصر المعزى ، لأن المعز لدين الله هو الذى أمر جوهرًا .

(١) بنى سور القاهرة ثلاث مرات : الأولى فى سنة ٣٥٨ هـ فى عهد القائد جوهر ، والثانية فى سنة ٤٨٠ هـ فى خلافة المستنصر ، والثالثة فى سنة ٥٦٦ هـ فى عهد الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب (المقرئى الخطاط ج ١ ص ٣٧٧) على يد وزيره بدر الجمالى الذى هدم هذا السور وبناه بالأحجار . أبو المحاسن ج ٢ ص ٤٢٣ .

Lane—poole : Egypt in the Middle Ages P. 118 (٢)

(٣) المقرئى : الخطاط ج ١ ص ١٠٩

بينائه حين سيره لفتح مصر ، ووضع له رسمه^(١) . وكان يسكنه الخليفة ويجلس فيه للنظر في أمور الدولة ، كما كان به دواوين الحكومة وخزائن السلاح وغيرها ، وكذلك الجند لحراسة الخليفة . ويذكر المسيو ميجون أنه كان يحتوى على أربعة آلاف حجرة^(٢) .

وكان في ذلك القصر أبواب كثيرة ، نخص بالذكر منها : باب الذهب وتعلموه . منظره يشرف منها الخليفة في بعض الأوقات ، وباب العيد وأمامه رحبة متسعة تقف فيها الجنود يومى العيدين وتعرف برحبة العيد ، وباب الديلم وموضعه الآن مسجد الحسين ، ويصل إلى باب الزعفران ، وهى مقبرة الخلفاء وسائر أفراد الأسرة المالكة ، وموضعه خان الخليلي الآن . وقد دفن الممنون في هذه المقبرة حيث آبائه المهدي والقائم والمنصور إلى أحضرها منه في توابع من بلاد المغرب .

وقد ظلت هذه المقبرة مدفناً للخلفاء وأولادهم ونسائهم حتى أنشأ فِيمَ اركان الدين الخليلي ، أحد أمراء المماليك ، خانه المعروف باسمه ، فأخرج منها عظامهم وألقاها على تلال البرقية^(٣) وبين باب الديلم وباب تربة الزعفران الخوخ السبع ، التي كان يصل منها الخليفة إلى الجامع الأزهر في ليالى الوقود^(٤) . فجلس بمنظره هذا الجامع لمشاهدة الناس . ويقابل باب الديلم ، الجامع الأزهر في الجنوب الشرقى من القصر ، وكان يصل فيه الخليفة صلاة الجمعة . ويجوار رحبة باب العيد دار

(١) المقرئى ج ١ ص ٣٨٤

(٢) G . Migeon : Art Musulman, I. p . 42

(٣) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٤٧

(٤) ليالى الوقود : هى الليالى التى تسبق أول ومنتهى شهرى رجب وشعبان . وكان الناس تبعا للتعاليم الشيعية يصومون بهض هذين الشهرين كصومهم رمضان . ولذلك كانوا يحتفلون بهذه الأيام الأربعة كما يحتفلون بـرمضان . واستمر الاحتفال بهذه الأيام إلى وقتنا الحاضر .

الضيافة ، وكان يسمى بدار سعيد السعداء ، ويقابلها دار الوزارة . وكان هناك طريق يوصل بين تربة الزعفران وباب الزهومة^(١) . وبين هذا الباب والجامع ، كانت خزانة القصر ومن بينها خزائن المكتب والمشروبات والأسلحة والسكى والفرش ، وكانت تقع في الجهة الشرقية من القاهرة المعزية .

وقد دخل المعز ذلك القصر في اليوم السابع من شهر رمضان سنة ٣٦٢ هـ ، وأثنى بفاخر الرياش وكل ما يحتاج إليه الملوك والخلفاء^(٢) .

وكان يقع أمام القصر الشرقي ، القصر الذي بناه العزيز ، وكان أصغر منه ويعرف بالقصر الغربى وقد بنى في موضعه المارستان الكبير المنصورى . ولا يزال بعضه إلى اليوم يعرف بسوق النحاسين^(٣) ، وبجواره الميدان والبستان الكافورى^(٤) ودار الضيافة القديمة ورحبة الإقبال . وكان بين ذلك القصر والقصر الشرقى الكبير فضاء متسع يسع عشرة آلاف جندي ، أطلق عليه فيما بعد « بين القصرين » . وقد اختط جوهر طريقاً عاماً يمر وسط القاهرة من باب زويلة جنوباً إلى باب الفتوح .

ويصف لنا على مبارك باشا^(٥) مدينة القاهرة على النحو الذى كانت عليه أيام المعز في هذه العبارة : « شكل مدينة القاهرة في أيام القائد جوهر كان مربعاً تقريباً ، ضلعه ألف ومائتا متر ، ومساحة الأرض المحصورة فيه ثلثمائة وأربعون فدانا : منها نحو سبعين فدانا بنى فيها القصر الكبير ، وخمسة

(١) سمي بباب الزهومة : لأنه كانت تشم منه رائحة اللحم .

(٢) المقرئى : اتعاظ الخلفاء ٧٤

(٣) Lane—Poole : The Story of Cairo, p. 128

(٤) البستان الكافورى هو : الحديقة الغناء التى أنشأها كافور واستولى عليها الفاطميون . وكان يقع غربى سوق النحاسين الآن .

G. Migeon : Art Musulman, t. I. p. 41

(٥) الخطاط ج ١ ص ٨١

وثلاثون فدانا للبيستان الكافورى ، ومثلها الميادين ، فيكون الباقي مائتى فدان هو الذى توزع على الفرق العسكرية فى نحو عشرين حارة بجانبى قصبة القاهرة . وكان سور المدينة الغربى بعيداً عن الخليج بنحو ثلاثين متراً ، وفى سنة ستة وثمانين وأربعمائة فى وزارة بدر الجمالى وخلافة المستنصر بالله الفاطمى هدم هذا السور وبليت الأبواب من حجر ،^(١) .

ولما اختط القائد جوهر مدينة القاهرة جعل لها أربعة أبواب : هى بابا ذويلة وباب النصر وباب الفتوح . ويقول ستانلى لين پول^(٢) أن بابى ذويلة يتكونان من بابين متجاورين ، أحدهما القوس الذى كان بجوار المسجد المعروف بسام بن نوح عليه السلام ، ولهذا سمي « باب القوس » . وقد مر منه الممن عند قدومه من بلاد المغرب ، فكان الناس يمرون منه تبركاً . أما الباب الثانى فقد تشاءم منه الناس وهجروه .

ويقول القلقشندى^(٣) إن جوهرأ سمي بابى ذويلة بهذا الاسم نسبة إلى قبيلة ذويلة ، إحدى قبائل البربر التى جاءت معه من بلاد المغرب . ولما قدم أمير الجيوش بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر مصر فى سنة ٤٨٥ هـ (فى زمن الشدة العظمى) بنى باب ذويلة الكبير الذى لا يزال باقياً إلى اليوم . أما باب النصر فقد بناه جوهر خارج مدينة القاهرة ، وظل فى موضعه حتى جاء بدر الجمالى ونقله إلى المكان الذى يوجد به الآن . أما الباب المعروف بباب الفتوح الآن فهو من عمل أمير الجيوش بدر الجمالى . وقد بناه فى غير المكان الذى بنى فيه جوهر باب ذويلة الذى لم يبق منه سوى عقده وعضادته اليسرى^(٤) . ويقول مسيو فيت : إن هذه الأبواب الثلاثة التى جدد بناءها بدر

(١) ذكر الاستاذ مرجوليوث

Margolionth : Cairo, Jerusalem and Damascus

إن السور الذى أقامه بدر الجمالى قد زاد مساحة المدينة ٦٠ فدانا

Lane—Poole : The story of Cairo, p.129 (٢)

(٣) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٥٢ .

(٤) المقرئى : انعاظ الحنفى ص ٣٨١

الجمال تجمع بين سلامة الذوق ودقة البناء . وهى من عمل إخوة ثلاثة أصلهم من مدينة الرها ، (١) .

وكانت القاهرة فى أيام جوهر صغيرة ، ليس بها سوى قصر الخليفة والجامع الأزهر وكنائس الجنود ودور المغاربة ورجال الحاشية وحرس الخليفة (٢) . وكان سكانها جميعاً من الشيعة . ثم ظلت تتدرج فى العمران حتى بلغت فى نهاية عهد الفاطميين درجة كبيرة من التقدم ، فأقيمت فيها المباني الفخمة والقصور الشاهقة والأسواق الكبيرة ، وأنشئت فيها الحدائق الغناء ، وبُنيت بها الدور والحمامات والخوانيت والمدارس والمساجد والفنادق ، واختلطت الشوارع والأزقة والدروب والحارات .

بناء الجامع الأزهر :

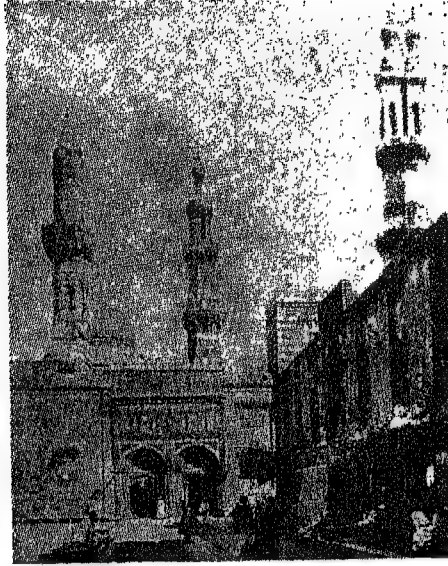
دخل الإسلام مصر فى سنة ٦٢٠ هـ (سنة ٦٤٠ م) ، فأخذ المسلمون فى بناء المساجد . ولم يكن الباعث على بنائها مقصوراً على الأغراض الدينية وحدها كما كان الحال فى جامع عمرو ، بل كان ذلك راجعاً إلى أسباب سياسية واجتماعية أيضاً . وكانت تتخذ بعض المساجد حصونا ، فكان يراعى فى بنائها أن تكون كبيرة الحجم لتسع عدداً كبيراً من الجنود . وخير مثل لذلك جامع ابن طولون ثالث المساجد الجامعة فى مصر .

ولم تلبث هذه المساجد أن استخدمت فى الأغراض العلمية إلى جانب الأغراض السياسية والدينية ، فكان يدرس فيها اللغة العربية وأصول الدين .

G. Wiet : Précis d'Histoire Musulmane de l'Egypte (١)
p. 36—37.

أنظر أيضاً :

Mme R. L. Devonshire : Quatre—Vingts Mosquées du Caire, p. 21.
Lane—Poole : The Story of Cairo, p. 125 (٢)



الجامع الأزهر

وكان من بين تلك المساجد ، الجامع الأزهر ، الذى ذاعت شهرته . وأصبح مركزا لدراسة الدين الإسلامى ، ليس فى مصر فحسب ، بل فى العالم الإسلامى أجمع .

كان جامع عمرو أقدم هذه الجوامع . فقد أسسه عمرو بن العاص حين رجع من الإسكندرية ، بعد تخطيط مدينة القسطنطينية . وكان أول ما توجه إليه نظره أن يبنى للمسلمين مسجداً يقيمون فيه شعائرهم الدينية ، وذلك جرياً على السياسة التى سار عليها المسلمون فقد كانوا يقيمون فى عاصمة كل إقليم يفتحونه مسجداً للجماعة .

بنى عمرو بن العاص جامعته المشهور سنة ٢١ هـ ، وهو أقدم جوامع مصر الإسلامية . ومن ثم أطلق عليه المسجد العتيق ، و تاج الجوامع ، والمسجد الجامع^(١) . ويقع شمال حصن بابليون الذى كانت تقيم فيه حامية الروم

(١) ابن دقاق ج ٤ ص ٥٩

وقت الفتح الاسلامى . وأول من زاد فى هذا الجامع مسلمة بن مخلد الأنصارى (٤٧ - ٦٢ هـ) والى مصر من قبل معاوية ، فزخرف سقفه وجدرانها ووسعه من الجهتين الشرقية والشمالية . ولما ولي عبد العزيز بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ) من قبل أخيه عبد الملك بن مروان ، هدم هذا الجامع وبناءه من جديد ووسعه من جميع جهاته^(١) ، فظل المسجد عامرا يؤمه الناس للصلاة فى كل يوم . ويقول ستانلى لين پول إنه كانت لهذا المسجد أهمية دينية كبيرة عند المصريين ، ولا يزال أهل القاهرة يحرسون على إقامة صلاة الجمعة بالتيمة به إلى اليوم^(٢) . ولم يبق من البناء الأصيل شئ الآن ، فقد بناء عمرو باللين . وإنما ترجع أهميته التاريخية إلى موضعه الذى بنى فيه أولا باعتباره الموضع الذى أقيم فيه أول مسجد فى مصر^(٣).

ولما انتقلت السيادة إلى العباسيين أسس صالح بن على مدينة العسكر . وفى سنة ١٦٩ هـ (٧٨٥ م) بنى الفضل بن صالح مسجد العسكر فعدا من المسجد الجامعة بالديار المصرية ، وكان بجوار دار الإمارة وسط هذه المدينة . ثم زاد فيه عبد الله بن طاهر والى مصر من قبل المأمون وظل قائماً فى مكانه حتى خربت المدينة كلها ونقل أنقاضها أمير الجيوش بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر بالله الفاطمى^(٤) إلى مدينة القاهرة لتعميرها .

ثم جاءت الدولة الطولونية فبنى أحمد بن طولون سنة ٢٦٣ هـ مسجده المعروف باسمه على جبل يشكر فى الجهة الجنوبية من القاهرة الحالية والجهة الشمالية من العسكر . ويقال أن الذى دغاه إلى بنائه هو ضيق مسجد العسكر بالمصلين لكثرة جند أحمد بن طولون وخدمه وعبيده من جهة ثم التقرب إلى

(١) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٢٤٦

(٢) Lanc—Poole : The Story of Cairo p. 44

(٣) Devonshire : Quatre-vingts Mosquées du Cairo, p. 10

(٤) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٢٦٤ - ٢٦٥

الله تعالى من جهة أخرى . وقد جدده المنصور لاجين سنة ٦٩٦ هـ ، فإنه بعد أن قتل الملك الأشرف برسباي اختفى في ذلك الجامع ونذر أن يعمره إذا من الله عليه بالخلاص . وقد وفي بنذره فاهتم بعماراته وأعادته إلى ما كان عليه من البهاء والرواء ، ووقف عليه الأوقاف وقرر تدريس العلوم العقلية والنقلية فيه^(١) .

وهذا الجامع هو أقدم آثار مصر الإسلامية التي بقيت على حالها الأول^(٢) . فقد سقطت مباني مدينة القطائع وزالت معالمها عدا هذا المسجد ، وذلك حين جاء محمد بن سليمان السكاتب قائد الخليفة العباسي المكتفي إلى مصر ووضع النار فيها بأمر الخليفة . ويرجع السبب في بقاء هذا الجامع حتى اليوم إلى استعمال الجير والرماد والآجر الأحمر القوي النار في بنائه . وقد أشير على ابن طولون باستعمال هذه المواد في البناء حين قال لأصحابه : « أريد أن أبني بناء إن احترقت مصر بقي ، وإن غرقت بقي »^(٣) .

جاءت بعد ذلك الدولة الفاطمية ، وتم فتح مصر على يد جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله سنة ٣٥٨ هـ وأسس مدينة القاهرة ، في نفس الليلة التي دخل فيها مدينة مصر (الفسطاط والعسكر) ، لتكون أشبه بمدينة حصينة ومعقل له ولجنده وأنصاره من المغاربة ولتتقيه شر القرامطة . وكان المذهب السني في ذلك الوقت منتشرأ في مصر ، ولم ير جوهر - بما عرف عنه من الحزم وبعد النظر - أن يفاجيء السنيين في مساجدهم بشعائر المذهب الفاطمي . فخص منها بالذكر تلك العبارة « السلام على الأئمة آباء أمير المؤمنين المعز لدين الله » التي كان يذكرها الفاطميون في الخطبة ، حتى لا يثير جوهر حفيظة المعريين . لذلك عول جوهر على تلافي الشر قبل وقوده ، فبنى مسجدا يتلقى فيه

(١) ابن دقاق : الانتصار ج ٤ ص ٢٢١ - ١٢٤

(٢) ابن دقاق : نفس الجزء والصفحة

(٣) الخطط ج ٢ ص ٢٦٧

الناس عقائد المذهب الفاطمي . ومن ثم شرع في بناء الجامع الأزهر في يوم السبت الرابع من شهر رمضان سنة ٣٥٩ هـ (سنة ٩٧٠ م) . وتم بناؤه في سنتين تقريباً ، وأقيمت الصلاة فيه لأول مرة في اليوم السابع من شهر رمضان (سنة ٣٦١ هـ و ٢٢ يولية سنة ٩٧٢ م)^(١) .

كان الأزهر أول مسجد شيد في مدينة القاهرة المعزية وأشهر جامع في العالم الإسلامي ، وأعظم جامعة إسلامية تدرس فيها العلوم الدينية والعقلية الآن ، تقصده الطلاب من جميع البلاد الإسلامية لتلقى العلم فيه (٢) .

وقد اختلف المؤرخون في تسمية هذا الجامع : فقال بعضهم إنه كان يحيط به القصور الزاهرة التي بنيت عند إنشاء مدينة القاهرة ، ولذا سمي بالأزهر . وقال آخرون إنما سمي كذلك تفاؤلاً بما سيكون له من الشأن العظيم والسكانة الكبرى بازدهار العلوم فيه . ويظهر لنا أن الفاطميين الذين ينتسبون إلى فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم سموه الأزهر إشادة بذكر جدتهم فاطمة الزهراء .

يشتمل الأزهر على مكان مسقوف للصلاة يسمى مقصورة ، وآخر غير مسقوف يسمى صحناً ، وما إلى ذلك من الملحقات التي تتبع المساجد عادة من منارات ومناطس وغيرها . وقد بنى فيه القائد جوهر مقصورة كبيرة بها ستة وسبعون عموداً من الرخام الجيد الأبيض اللون في صفوف متحاذاة . وفي سنة ١٦٧٠ ع بنى الأمير عبد الرحمن كمتخدا مقصورة ثانية بها خمسون

(١) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٢٧٣ ، الفلشندي : ج ٣ ص ٣٦٤ .

Lane—Poole : The Story of Cairo, p. 128

(٢) Mme R. T. Devonshire : Quatre—vingts Mosquées du (٢)
Caire, p. 11. G Migeon : Art Musulman, tome I. p. 41

عمودا من الرخام . وبذلك أصبح بهذا الجامع مقصورتان عدد أعمدهما مائة وستة وعشرون عمودا . وإذا أضيف إلى هذا العدد ، الأعمدة الموضوعة بملحقات الجامع كان مجموعها ثلاثمائة وخمسة وسبعين عموداً . وترتفع المقصورة الجديدة نصف ذراع عن التي بناها القائد جوهر . وسقف المقصورتين من الخشب المتقن الصنع ، وهما متلاصقتان ، وفي كل منهما نوافذ لدخول النور والهواء ، وأما صحن الجامع ، فهو مكان متسع غير مسقف ، مرصوف بالحجر ، يجلس فيه الطلبة في الشتاء للتمتع بحرارة الشمس ، وينامون به في فصل الصيف عند اشتداد الحر . ويقعون فيه الصلاة عند ازدحام المقصورتين . وهو محاط من جهاته الأربع بيواناتك تقوم على أعمدة من الرخام ، وعلى حيطانه آيات قرآنية منقوشة بخط كوفي جميل (١) .

وقد أنشأ القائد جوهر بهذا الجامع محراباً بالمقصورة القديمة يسمى الآن القبلة القديمة ، ثم أقيمت به تسعة محاريب أخرى . ولم يبق من هذه المحاريب سوى ستة ، أشهرها إثنان أحدهما بالمقصورة القديمة ، والآخر بالمقصورة الجديدة ، واسكن منهما إمام يخالف صاحبه في المذهب الديني .

وللجامع منبر واحد ، وهو من الخشب المخروط الجميل الصنع ، وله خطيب خاص في الجمع والأعياد . وقد نقل المنبر الأصلي الذي أنشأه القائد جوهر إلى جامع الحاكم .

وقد أنشئ بالأزهر عند تأسيسه منارة واحدة ، ثم أصبح فيما بعد خمس منارات يؤذن عليها في أوقات الصلوات الخمس وفي ليالي رمضان والمواسم . وكانوا يعرفون أوقات الصلاة عن طريق الميقاتي ، ووظيفته التنبيه على أوقات الصلوات . وكان يتبع أذان المنارات الأخرى بالقاهرة أذان الأزهر . وكان

G. Wiet : Précis d' Histoire Musulmane de L'Egypte, p.42 (١)

الميتافى يعرف الأوقات بالنظر فى المزالة التى لاتزال قائمة إلى اليوم بأحد
جدران من الأزهر .

وكان المعز يذهب إلى الجامع الأزهر فى يوم الجمعة فى موكب حافل لإقامة
الصلوة . وقد سار على هذه السنة من جاء من الخلفاء الفاطميين بعد المعز . وقد
ذكر المقرئى أن الخليفة العزيز الفاطمى هو أول من حوّل الأزهر من مسجد
تقام فيه الصلاة إلى جامعة تدرس فيها العلوم ، كما كان أول من أجرى الأرزاق
على طلاب العلم فيه وبنى لهم المساكن للإقامة فيها^(١) .

الباب الخامس

حياة جوهر في مصر بعد قدوم المعز إليها

قدوم المعز إلى مصر :

ظل جوهر يحكم مصر بنفسه أربع سنوات ، منذ فتحها سنة ٣٥٨ هـ حتى قدم إليها المعز سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) (١) . وقد ذكر ابن خلسكان (٢) إن جوهر أ طالما كتب إلى المعز يستدعيه للحضور إلى مصر لتولى شئونها ، بعد أن رأى أن مصر والشام والحجاز قد خضعت لسلطان الفاطميين وخطب المعز على منابرهما . فلما وجد المعز أن دعائم مملكته قد توطدت في الشرق ، عزم على الرحيل إلى مصر .

خرج المعز من المنصورة يوم الإثنين ٢١ شوال سنة ٣٦١ هـ (٥ أغسطس سنة ٩٧٢ م) ، يريد مصر . فوصل سردانية وأقام بها مدة حتى اجتمع إليه رجاله وأتباعه . وهناك عقد العهد لبلسكين بن زيري بن مناد الصنهاجي على إفريقية (الأربعاء ٢٢ ذى القعدة سنة ٣٦١ هـ وسبتمبر سنة ٩٧٢ م) . وأمر المعز أهل إفريقية بطاعته والائتمار بأمره (٣) . ثم رحل عنها يوم الخميس ٥ صفر سنة ٣٦٢ هـ ، ولم يزل في طريقه حتى وصل إلى برقة ومنها إلى مصر .

وقد دخل المعز الاسكندرية ، بتمط جواده (السبت ٢٣ شعبان سنة ٣٦٢ هـ و ١٩ مايو سنة ٩٧٣ م) ، في جمع كبير من رجالات دولته ، من بينهم أولاده

(١) ابن خلسكان : وفیات الأعيان ج ١ ص ١٢٠

(٢) ابن خلسكان ج ٢ ص ١٠٢

(٣) ابن خلسكان ج ٢ ص ١٠٨

وأخوته وأعمامه ، ومعه جنث آبائه المهدي والقائم والمنصور^(١) . فاستقبله أعيان البلاد ، وعلى رأسهم أبو الطاهر قاضي مصر ، فجلس المعز عند المنارة وخطبهم خطبة طويلة ذكر فيها أنه لم يرد دخول مصر لزيادة في ملكه ولا مال ، وإنما أراد إقامة الحق والحج والجهاد ، وأن يختم عمره بالأعمال الصالحة ، وأن يعمل ما أمر به جده صلى الله عليه وسلم . ثم وعظهم وأطال في الوعظ حتى بكى بعض الحاضرين . ثم خلع على القاضى وبعض من كان معه ، ثم انصرفوا بعد أن حملهم على دوابه^(٢) .

رحل المعز من الأسكندرية في أواخر شعبان سنة ٣٦٢ هـ ووصل إلى الجيزة في ٢ رمضان من هذه السنة . فخرج إليه القائد جوهر وترجل عند لقائه وقبل الأرض بين يديه . واجتمع به الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات . وقد أقام المعز بالجيزة ثلاثة أيام ، أخذ عسكره خلالها في العبور بامتعتهم إلى ساحل مصر . وفي يوم الثلاثاء الخامس من شهر رمضان سنة ٣٦٢ هـ عبر المعز النيل ودخل القاهرة دون أن يمر على الفسطاط ، وكان الأهليون قد زينوها بالزيينات الباهرة ظناً منهم أنه سيبدأ بدخولها ، بينما يستعد أهل القاهرة للقائه^(٣) .

ولما وصل المعز إلى القاهرة (الثلاثاء ٧ رمضان سنة ٣٦٢ هـ) ، دخل القصر الذى بناه له جوهر ، وخر ساجداً لله تعالى ، ثم صلى ركعتين في إحدى ردهانه ، وصلى خلفه من كان معه ، وقد أصبحت مصر منذ ذلك الحين دار خلافة بعد أن كانت دار إمارة^(٤) ، وغدت القاهرة - بدل القيروان -

G. Wiet : Précis d'Histoire Musulmane de l'Egypte p. 33 (١)

G. Wiet : Art Musulman, t. I. p. 41

(٢) ابن خلدون كان ج ٢ ص ١٠٢

G. Migeon : Art Musulman, t. p. 41 (٣)

(٤) المقرئى : انماط الحنفيا ص ٨٩

مركز هذه الإمبراطورية الشاسعة الأرجاء . على أن نقل المعز مقر خلافته من المهدية إلى القاهرة قد أفقد الفاطميين إفريقية (تونس) ^(١) . فإن بلسكين شيخ صنهاجة من قبائل البربر سرعان ما أعلن استقلاله وأسس الدولة الزيرية في سنة ٣٦٢ هـ . وحذا حذوه في ذلك الحماديون في سنة ٣٩٨ هـ . وفي عهد المستنصر ثم استقلال أمراء شمال إفريقية (سنة ٤٤٠ هـ) ، وخرجت هذه البلاد نهائياً عن سلطان الفاطميين ^(٢) .

أقام مع المعز في القصر أولاده وحاشيته وخدمه وعبيده . وكان بالقصر كل ما يحتاج إليه الملوك من مال وعين ^(٣) وجوهر وحلى وفرش وأوان وثياب وسلاح . وكان جوهر يقيم في ذلك القصر ، فلما علم بوصول المعز إلى الجيزة تركه ولم يحمل معه شيئاً من أثاث القصر إلا ما كان عليه من الثياب ، ونزل في داره بالقاهرة ^(٤) . وفي اليوم التالي لوصول المعز خرج أشراف مصر وقضايتها وعلمائها وجوهرها لتنمته والاحتفال بوصوله .

جلس المعز في قصره في الخامس عشر من شهر رمضان على السرير الذهب الذي صنعه له جوهر في الإيوان الجديد . ثم أذن المعز بدخول الناس عليه . فدخل الأشراف ، ثم الأولياء ، فسائر وجوه المدينة ، وجوهر قائم بين يديه ، يقدم الناس قوماً بعد قوم ^(٥) . ثم قدم جوهر هديته إلى مولاه المعز . وكانت — على ما ذكره المقرئ بنزى نقلاً عن ابن زولاق — مائة وخمسين فرساً مسرجة ملجمة ، وكان من تلك السروج واللجم ، ما هر موشى بالذهب

(١) Lane—Poole : The Muhammadan Dynasties, p. 71

(٢) Lane—Poole : op. Cit, p. 39

(٣) العين : مشترك لفظي يطلق على أشياء مختلفة . ولعل المقصود بها هنا النقد وكذا الدنانير المضروبة والغير المضروبة .

(٤) ابن خلكان . ج ١ ص ١٢٠

(٥) المقرئ بنزى : اتعاظ الخنفا ص ٩٠ — ٩١

وما هو مرصع بالجواهر ، وواحد وثلاثون فيه على بخافي^(١) بالديباج^(٢) والمناطق^(٣) والفرش ، ومنها تسع نوق محملة بالحرير ، وثلاث وثلاثون بغلة ، منها سبعة مسرجة ملجمة ، ومائة وثلاثون بغلة للنقل ، وتسعون نجيبا^(٤) ، وأربعة صناديق مشبكة يرى ما بداخلها من أواني الذهب والفضة ، ومائة سيف محلى بالذهب والفضة . ودرجات من فضة مخروقة فيها جواهر ، وشاسية مرصعة في خلاف ، وتسعمائة سفظ ، ونخت^(٥) ، فيها الطرف وكل ما أعده جواهر لمولاه المعز من ذخائر مصر^(٦) .

ولما فرغ جواهر من تقديم هديته قام أبو جعفر بن عبيد الله الحسيني وقدم هديته إلى المعز وهي أحد عشر سفظاً من متاع تونة^(٧) وتنيس^(٨) ودمياط^(٩)

(١) البخت : نوع من الإبل .

(٢) الديباج : ثوب سداه ولحمته إبرسيم (حرير) ويقال هو معرب . ثم كثر حتى اشتقت العرب منه .

(٣) المناطق : جمع منقاع وهو ما يشد به الوسط .

(٤) النجيب : هو السكريم (الأصيل) من الجيل .

(٥) تخت : وعاء

(٦) المقریزی : الخطط ج ١ ص ٣٨٥ — ٣٨٦ : المعاط الحنفاء ص ٩١ ،

G. Migeon : Art Musulman I. p. 42

(٧) تونة : جزيرة قرب تنيس ودمياط .

(٨) تنيس : جزيرة بين الفرما ودمياط .

(٩) اشتهرت هذه المدن في ذلك الوقت بصناعة المنسوجات على اختلاف أنواعها ، حتى كان لها شهرة عالمية في ذلك المضمار . فقد كان يضرب المثل بثياب تونة ، وكانت تصنع بها كسوة السكبة أحياناً . كما اشتهر أهل تنيس بعمل الشياح الملوثة والفرش النادرة المثال ، وأهل دمياط بصناعة الأقمشة القلونية التي أخذت صناعتها من بلاد اليونان ، وهي نوع من القماش ذو ألوان براقة تتلألأ إذا انكسرت عليها أشعة الشمس ؛ وقد ذكر ياقوت عند كلامه على دمياط وتنيس أن حاكه الشياح الرفيعة =

وخيل وبغال . وقال : دكنت أشتى أن يلبس منها المعز لدين الله ثوبا أو يتعمم بالعمامة التي فيها ، فما عمل لخليفة قط مثلها ، (١) .

وبعد أن تقبل المعز ما قدم اليه من الهدايا والتحف أذن لجماعة الممننين بالجلوس في مجلسه ، وأمر بإطلاق جميع من اعتقلهم جوهر من الإخشيديين والسكافوريين وكانوا نحو الألف .

وفي عيد الفطر ، ركب المعز إلى مصلى القاهرة الذى بناه جوهر ، فأقبل عليه في موكب ، وجلس خلفه من الجمة اليمنى أبو جعفر مسلم العلوى وصلى المعز بالناس صلاة العيد صلاة تامة طويلة . فقرأ في الركعة الأولى أم الكتاب وهل أتاك حديث الغاشية ، ثم كبر بعد القراءة وأطال الركوع والسجود ، وكان القاضى النعمان بن محمد يبلغ عنه التكبير . ثم قرأ في الركعة الثانية أم الكتاب وسورة الضحى ، ثم كبر أيضاً بعد القراءة وهى صلاة جده على ابن أبى طالب . وأطال الركوع والسجود فى الثانية أيضاً . قال ابن زولاق : قد سبحت خلفه فى كل ركعة وسجدة نيها وثلاثين تسبيحة . وجهر المعز بسم الله الرحمن الرحيم ، فى كل سورة . ولما فرغ من الصلاة سعد المنبر ومعه القائد جوهر وعمار بن جعفر وشفيح صاحب المظلة . وخطب الناس ، وأبلغ فى خطابته حتى أبكاهم ثم انصرف فى عساكره (٢) . ولما وصل إلى قصره دعا الناس لتناول الطعام عنده ، وعاتب من تأخر منهم ، وتهدد من بلغه عنه صيام العيد .

وقد خلع المعز على جوهر فى ذلك العيد خلعة مذهبة ، وعمامة وقائده

== بهما كانوا من القبط ، وأن أهل دمياط كانوا يستأجرون غرافا فى قبوات على خليج دمياط لعمل الثياب المعروفة بالشرب .

(١) المقرئى : أعاظ الحنفيا ص ٩١

(٢) المقرئى : أعاظ الحنفيا ص ١٩

سيفاً كما قدم إليه عشرين فرساً مسرجة ملجمة ومنحه خمسين ألف دينار ومائتي ألف درهم . وقد منح المعز جوهراً هذه الهدية إعجاباً بما أصابه من النجاح في فتوحه وتقديراً لما قدمه إليه جوهراً من تلك الهدية الثمينة التي أنبأنا على وصفها .

ولما فرغ المعز من الاحتفال بعيد الفطر ، ركب إلى المقدس ، وأشرف على أسطوله ، وقرأ عليه وعوذه ، وخلف عليه جوهراً والقاضي النعمان ، ثم عاد إلى قصره (١) . ومن هنا نتبين أن جوهراً كان لا يزال يتمتع في ذلك الوقت بشيء من النفوذ الذي كان يتمتع به قبل وصول المعز إلى مصر .

* * *

ظلت مقاليد الأمور في مصر بيد جوهر حتى قدم المعز في سنة ٥٣٦٢ هـ . وقد استأثر المعز بكل ما كان يتمتع به جوهر من النفوذ . على أن جوهراً قد بقي بجانب المعز يدلّه على أحوال البلاد ويشير عليه بما تتطلبه من وجوه الإصلاح .

ولم يذكر التاريخ شيئاً يدل على أن المعز قد حفظ لذلك الفاتح العظيم ما كان له من الأيادي البيضاء على الدولة الفاطمية ، وما قام به من فتح مصر والشام وفلسطين وتثبيت دعائم الفاطميين فيها ونشر الدعوة لهم بها ، وصد غارات القرامطة عن مصر ، تلك الغارات التي كادت تقضي على الدولة الفاطمية الناشئة . وكل ما حفظه لنا التاريخ أن المعز — على الرغم مما حبا به جوهر من العطف وأولاه من الثقة وحسن التقدير — قد أقصاه عن مناصب الدولة الكبيرة كالإخراج والحسبة والسواحل والأعشار والجواري والاحباس

والمواريث والشرطتين وغيرها ، وقلدها يعقوب بن كاس وعسلوج ابن الحسن .

وهكذا نرى جوهرأ يتوارى قليلا قليلا عن مسرح السياسة المصرية ولم يعد إلى الظهور إلا أواخر سنة ٣٦٤ هـ ، حين تفاقم خطر أفتكبن والحسن ابن أحمد القرمطي واستعصى على المعز وقواد جيشه كبح جماحهما ، فلجأ إلى جوهر وولاه قيادة جيوشه . ولم يكن جوهر في تلك المدة أقل إخلاصاً وولاء لمولاه المعز ثم لابنه العزيز من بعده عما كان عليه من قبل ، وكان ذلك آخر عهد جوهر بالشئون العامة في مصر .

وهنا نتساءل عن السبب في موقف المعز إزاء هذا القائد العظيم والفتاح الكبير وإقصائه إياه عن المناصب الهامة في تلك البلاد التي تم فتحها على يده . ولعل المعز قد سلك مع جوهر ماسلكه غيره من الخلفاء قبله مع عظماء قوادهم من مؤسسي الدول وذوى الشخصيات البارزة . وذلك لما كانوا يخشونه على نفوذهم أن ينتقل إلى هؤلاء . وإن تعوزنا المثل للتدليل على صحة هذا القول : فقد قتل أبو جعفر المنصور أبا مسلم الخراساني الذي قامت على أكتافه الدولة العباسية ، وكذلك فك عبيد الله المهدي بأبي عبد الله الشيعي بعد أن انتشرت على يده الدعوة الشيعية وتأسست الدولة الفاطمية في بلاد المغرب . على أن جوهرأ — وإن جازاه المعز على فتوحه جزاء سنهار — فقد كان أحسن حالا من غيره من القواد الفاتحين ، كأبي مسلم وأبي عبد الله الشيعي .

تثبيت سلطان الفاطميين في سورية

قد ذكرنا كيف تفاقم خطر أفتكبن والقرامطة في الشام واستعصى أمرهما على الخليفة المعز ، والآن نبين كيف تم القضاء على أفتكبن والحسن زعيم القرامطة ، وكيف عادت بلاد الشام إلى سلطان الفاطميين .

توفي المعز في ربيع الآخر سنة ٣٦٥ هـ (سنة ٩٧٥ م) وتولى الخلافة من بعده ابنه العزيز . فكتب إلى أفتكين يستميله إليه ويعدده حسن المكافأة إذا جلا عن دمشق . فرد عليه أفتكين برد جاف جاء فيه : هذا بلد أخذته بالسيف وما أدين فيه لأحد بطاعة ولا أقبل منه أمراً ، (١)

وقد استاء العزيز من ذلك الكتاب ، وحنق على أفتكين واستشار وزيره يعقوب بن كلس في الأمر ، فأشار عليه بتولية جوهر قيادة جيش يزحف على دمشق ويهاجم أفتكين لإخراجه منها عنوة . فوجد العزيز في جوهر رجل الساعة الذي يعتمد عليه ويركن إليه في استقرار الأمور في بلاد الشام وتثبيت الفتوح الفاطمية بها ، كما اعتمد عليه المعز في فتح مصر بعد أن استعصى على غيره من الخلفاء والقواد . وكان جوهر عند ظن العزيز به .

سار جوهر سنة ٣٦٦ هـ على رأس جيش عظيم لقتال أفتكين والقرامطة فلما علم القرامطة بذلك وهم في الرملة فروا إلى الأحساء . فدخلها جوهر واحتلها .

ولما علم أفتكين بمسير جوهر إلى دمشق واحتلاله الرملة ، استشار حماس أهل دمشق بتملك الخطبة التي ننقاهم عن ابن القلانبي (١) : « وقد علمتم أنني لم أتوسطكم ، وأتولى تدبيركم إلا عن رأيكم ومراكم ، وقد طلبني من هذا السلطان ما لا طاقة لي به . وأنا منهرف عنكم وداخل إلى بلاد الروم ، وعامل على طالب موضع أكون فيه ، واستمدما أحتاج إليه منه ، لئلا يلحقكم بقصد من يقصدكم ما يشغل به الوطاة عليكم ، وتصل به المضرة إليكم » .

ويظهر أن أفتكين قد أفلح في سياسته ، فقد جدد أهل الشام ثقتهم به ، يدل على ذلك ما جاء في رددهم على خطبته من تلك العبارة : « أما أخترناك

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ١٥ - ١٦

لسياستنا ورياستنا، على أن نتمكنك من تركنا ومفارتنا أو تألون جهداً من نفوسنا ومساعدتنا؟ دونك وبين يديك في المدافعة عنك .

وكان بيد جوهر أمان من مولاه العزيز لأفتكين، وخانماً، ودستا من ثيابه، وكتاباً بالعفو عنه لما فرط منه. فلما وصل جوهر إلى الرملة كتب إلى أفتكين في لين ورفق، وذكر له ما كتبته له العزيز من الأمان وما أعده له من الهدايا، وأشار عليه بترك الفتنة حتى يعود الأمان إلى نصابه. فكتب إليه أفتكين يشكر له حسن سعيه لدى العزيز، واعتذر بعدم قبول أهل دمشق ما جاء في كتابه. ثم سار أفتكين من عكا إلى طبرية حيث انضم إلى القرامطة واستعد للقاء جوهر وجمع الأقوات من بلاد حوران والبيثينة، ثم دخل دمشق وتمحصن فيها.

ترك جوهر دمشق في ٢٢ ذى الحجة سنة ٣٦٦ هـ فبنى سوراً يضم عسكره وحفر خندقاً كبيراً. ثم جمع أفتكين الجند للقتال، ووقعت بينه وبين جوهر حروب طويلة دارت فيها الدائرة على أفتكين في ٢١ ربيع الأول سنة ٣٦٦ هـ رغم ما أبداه من شجاعة نادرة كانت موضع إعجاب أهل دمشق. وقد عرض عليه أهل الشام أن يكتب إلى الحسن القرمطي يطلب منه السير إليه ومعاونته على قتال المغاربة. فلبى الحسن طلب أفتكين وسار إلى دمشق، ولا شك أن جهرراً لم ينس مصير جعفر في حربه مع القرامطة سنة ٣٦٠ هـ. فطلب جوهر الصلح على أن يجلو عن دمشق، ولا سيما حين رأى أن موارده قد انضبت وأن المؤونة قد أعوزته، وهلك معظم جنده. وهذا يفسر لنا قوة القرامطة ونفوذهم ونظامهم في الحروب، حتى إن مجرد نبأ سيرهم كان كافياً لتراجع قائد عظيم كجهر وأسرعه إلى طلب الصلح.

أجاب أفتكين جهرراً إلى طلبه. فرحل هذا من دمشق في ٣ جمادى الأولى سنة ٣٦٦ هـ، وجد في المسير لاقترب القرامطة منها، ثم ذهب إلى طبرية. فلما بلغ ذلك الحسن بن أحمد زعيم القرامطة سار إليه بعد أن رحل

جوهري عنها إلى الرملة . فبعث الحسن سرية لقتاله ووقعت بين الفريقين موقعة قتل فيها كثير من العرب . ثم ذهب إليه الحسن وتبعه أفتسكين لقتال جوهري^(١) . وانضم إليهما من أهل الشام أكثر من خمسين ألفاً ، ونزلوا بنهر الطواحين على بعد ثلاثة فراسخ من دمشق ، وكان المورد الوحيد للماء في هذه الناحية .

فلما رأى جوهري أن أفتسكين قد أخذ عليه الماء ، وأنهم يكن أمامه إلا ماء الأمطار التي يجمعها في الصهاريج مما لا يكفي جنده السكيف ، كتب إلى العزيز يخبره أنه لا يستطيع البقاء في هذا المكان وأنه لا قبل له بمقاومة جيوش أفتسكين والقرامطة ، وطلب إليه أن يأذن له بالتوجه إلى عسقلان إذا دعت الحال . فأذن له العزيز بذلك ، فأدج جوهري إليها ووصل في آخر الليل . فتبعه أفتسكين والحسن القرمطي ، وحاصراه فيها ، حتى ندرت المئون ، وعزت الأقوات فارتفعت الأسعار ونزل بالأهلين ضيق شديد . وكان الوقت شتاء لا يسهل معه حمل المئون إلى جوهري في البحر ، واشتدت الحال حتى أكل المغاربة الدواب الميتة ، وابتاعوا الخبز كل خمسة أرطال شامية بدينار معري^(٢) .

ولا شك أنه كان لشجاعة جوهري وبعد نظره الفضل في الخلاص من هذا المأزق الحرج ، في الوقت الذي كادت جيوشه تقع فريسة لجيوش أفتسكين

(١) ذكر المقرئى : (الخطط ج ٢ ص ٩) أن الحسن القرمطي توفي بالرملة سنة ٣٦٦ هـ وقام بأمر القرامطة من بعد ابن عمه جعفر ، فأفسد علاقات المودة بين أفتسكين والقرامطة . بينما يقول ابن القلانسي إن الحسن ظل يناصب الفاطميين العداء ويشير القلاقل والفتن في سورية حتى سنة ٣٦٨ هـ ، حيث هرب من ميدان القتال بعد أن هزمه العزيز . ونحن نرجح ما ذكره ابن القلانسي ، فقد نصب نفسه لجمع تاريخ دمشق دون غيرها من البلدان ، هذا إلى أنه قد سبق المقرئى بنحو ثلاثة قرون ، فقد توفي سنة ٥٥٥ هـ ، بينما توفي المقرئى سنة ٨٤٥ هـ

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦ - ١٧ .

والحسن القرمطى . فقد عمل على القضاء على ذلك التحالف المتين الذى كان يربط القرامطة بأفتكبن والذى كان الغرض الأول منه القضاء على سلطان الفاطميين فى بلاد الشام وانزعاجها من أيديهم .

أراد جوهر أن يصل بالدين والدهاء ما عجز عن الوصول إليه عن طريق الحرب والقتال . فلا عجب إذا رأيناه يكتب إلى أفتكبن يطلب إليه المهادنة وإحلال الوئام والصفاء محل المشاحنة والبغضاء ، ثم يبحث إليه الرسل يطلبون منه الاجتماع به . حتى إذا ما تم هذا الاجتماع رأينا جوهرأ يصل إلى غايته بفضل ما وهبه الله من الدهاء والحزم . وقد مر جوهر فى هذه السياسة مهارة كبيرة . فأتى أفتكبن من ناحية الدين وطالب إليه حقن دماء المسلمين والعمل على إخماد نار الفتنة ، بينما كان يعمل فى الوقت نفسه على التفرقة بين أفتكبن والحسن القرمطى . حتى إذا ما نجح ببعض النجاح فى فصل عرى التحالف القائم بينهما ، استطاع فى النهاية أن يقضى عليهم جميعاً .

وقد ذكر ابن القلانسى^(١) أن جوهرأ قال لأفتكبن حين اجتمع به : قد علمت ما يجمعنى وإياك من حرمة الإسلام وحرمة الدين . وهذه فتنة قد طالت ، وأريقتم فيها الدماء ، ونحن المأخوذون بها عند الله . وقد دعوتك إلى الصلح والمواذعة والدخول فى السلم والطاعة ، وبذات لك كل اقتراح وإرادة وإحسان وولاية . فأبيت إلا القبول من يشب نار الفتنة ويستمر عنك وجه النصيحة . فراقب الله تعالى وراجع نفسك ، وغلب رأيك على هوى غيرك . فأجابه أفتكبن : د أنا والله واثق بك وبصحة الرأى والمشورة منك . لكننى غير متمكن مما تدعونى إليه ، ولا يرضى القرمطى بدخوله فيه . ، . فرد جوهر عليه : د إذا كان الرأى والأمر على ذلك ، فإنى أصدقك على أمرى ،

تعويلا على الأمانة ولما أجده من الفتوة عندك . فقد ضاق الأمر وامتنع الصبر ، أن تمن على بنفسي وبهؤلاء المسلمين الذين معي وعندى ، وتذم لى الماضى وأعـود إلى صاحبي شاكرآ . وتكون قد جمعت بين حقن الدماء واصطناع المعروف ، وعقدت على وعلى صاحبي مئة تحسن الاحدوثة فيها ، وربما أملت المقابلة لك عنها . فقال أفتكين : دافعل وأمن على أن أعلق سبني وريح الحسن بن أحمد على باب عسقلان ، ونخرج أنت وأصحابك من تحتها . فرضى جوهر بذلك وتعاهدا ، وأخذ ختم أفتكين رهينة على الوفاء بذلك . وافترق القائدان ، فعاد أفتكين إلى مسكره ، ورجع جوهر إلى عسقلان ، ثم أرسل جوهر إلى أفتكين الهدايا والطرف .

وقد بعث أفتكين إلى الحسن القرمطى يعلمه بما كان بينه وبين جوهر . فذهب الحسن إليه وقال له : لقد أخطأت فيما فعلته وبذلته . وجوهر هذا ذو رأى وحزم ودهاء ومكر ، وقد استغلك بما عقده معك . وسيرجع إلى صاحبه ويحمله على قصدنا ، ثم لا يكون لنا به طاقة ، فياخذنا . ومن الصواب أن ترجع عن ذلك ، حتى يهلك هو وأصحابه جوعا ، ونأخذهم بالسيف . فتمسك أفتكين بما عاهد جوهرأ عليه وقال : قد عاهدته وحلفت له ، وما استعجز الغدر به . وقد علق السيف والرمح ، فنخرج جوهر وأصحابه من تحتها (١) .

ولاشك أن جوهرأ لم يكن يجهل المثل المأثور والغاية تهرر الواسطة ، فقد رضى أن يمر هو وجنده تحت سيف أفتكين وريح الحسن القرمطى ، فى الوقت الذى كان يعلم فيه أن ذلك الحل فيه شئ غير قليل من المذلة والمهانة بالنسبة إليه وإلى الغاطميين . بيد أن جوهرأ كان يزن عواقب الأمور ويعرف كيف يتلافى الخطر قبل وقوعه ، ومن ثم استطاع أن يخرج من هذه الحروب سالماً ظافراً . هل أن جوهرأ إنما قصد من ذلك أن يكسب الوقت ، حتى إذا ما أتتحت الفرصة ضرب أفتكين والقرامطة جميعاً . ولم يكن الحسن القرمطى يغفل عن هذه

الحقيقة حين أخبره أفتسكين بما تم بينه وبين جوهر ، تلك الحقيقة التي تنبئها من قول القمر مطي : « وجوهر هذا ذوى رأى وحزم ودهاء ومكر ، وقد استغفلك بما عقده معك وسيرجع إلى صاحبه ، ويحمله على قصدنا ، ثم لا يكون لنسأله طاقة ، . والفضل ما شهدت به الأعداء .

وصل جوهر إلى مصر ودخل على العزيز بالله ، وشرح له حقيقة الحال في بلاد الشام . واستفحال أمر أفتسكين ومن معه . فقال له : « ما الرأى ؟ » قال : « إن كنت تريد ، فأخرج بنفسك لإيهم وإلا فإنهم واردون على إثرى ، فأمر العزيز بإعداد العدة ، وأخرج على رأس جيش كبير مزود بالموثون والذخائر وجوهر على مقدمته .

فلما علم أفتسكين والحسن القمر مطي بما عقد العزيز العزم عليه ، عادا إلى الرملة حيث تلاقي الجيوشان ، وحمل وطيس القتال ^(١) ، « وجال أفتسكين بين الصغين يكر ويحمل يطعن ويضرب » . فقال العزيز لجوهر : « أرني أفتسكين » فأشار إليه « وهو يطعن تارة بالرمح ويضرب أخرى بالسيف ، والناس يتحامونه ويتقونه » . فأعجب العزيز ما رأى من فروسيته وشجاعته . ثم وقف العزيز ، وأنفذ إليه رجلا من عنده يقال له نميرة ، وقال له : قل : « يا أفتسكين أنا العزيز وقد أزعجتني عن سرير ملكي ، وأخرجتني لمباشرة الحرب بنفسى ، وأنا مسامحك بجميع ذلك ، وصانح لك عنه ، فترك ما أنت عليه ولذ بالعفو منى . فلك همد الله وميثاقه ، أنى أو منك وأصطفيك ، وأنوه باسمك . . . وأهب لك الشام وأتركه في يدك ، ^(٢) .

مضى نميرة إلى أفتسكين وبلغه رسالة العزيز . فخرج أفتسكين بحيث يراه الناس ، وترجل ، وقبل الأرض مراراً ومرغ خديه عليها معفراً وقال : « قل

(١) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٢٨١

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨

لأمير المؤمنين لو تقدم هذا القول منك اسارعت إليه ، وأطعت أمرك ، فأما الآن فليس إلا ما ترى ، . وعاد نميرة ونقل إلى العزيز ما سمع ، فقال له : إرجع إليه وقل له يقرب مني بحيث أراه ويراني . فإن استحققت أن يضرب بالسيف فليفعل ، . فضى نميرة وأبلغه ذلك فقال : وما كنت الذي أشاهد طلعة أمير المؤمنين وأنا بهذه الحرب ، وقد خرج الأمر عن يدي ، . ثم حمل على ميسرة الفاطميين ، فزمرها وقتل كثيراً من رجالها . وشاهد ذلك العزيز بعيني رأسه فحمل بميمنة جيشه والمظلة على رأسه ، فزمر أفتككين والقرمطى فى يوم الخميس ٢٣ المحرم سنة ٣٦٧ هـ وأعمل السيف فى جيشهما وقتل من جندهما نحو عشرين ألف رجل . وفر الحسن القرمطى هارباً راضياً من الغنيمة بالإياب .

وبذلك قضى العزيز على رأس تلك الفتنة بعد أن كادت تقوض دعائم الدولة الفاطمية . وفر أفتككين على فرس له ، فقبض عليه بعض العرب بعد أن بذل العزيز لمن يجي به مائة ألف دينار ، وأرسلوه إلى العزيز ، فأمر أن يشهر به فطيف على جمل « فأخذ الناس يلهطون وجهه ، ويزنون لحيته ، حتى رأى فى نفسه العبر ، .

وسار العزيز ومن معه من الأسرى إلى القاهرة . فأحسن الخليفة إليهم ، وأمنهم وكساهم ، وأسند إليهم الأعمال التى كانوا يلونها أيام أفتككين . أما أفتككين فقد خرج جنود الفاطميين لاستقباله ، ولم يشك أحد فى أنه مقتول لا محالة .

وهنا ظهرت صفات العزيز النادرة ، وحبه للعفو عند المقدرة مع رجل دوح الفاطميين وكاد يقضى على دولتهم وهى فى عنفوان قوتها وكامل فتوتها . على أنه كان لجوهر أثر كبير فى ذلك العفو بالرغم مما أنزله أفتككين به وبجنده ، فطالمسا عمل على تلطيف مزاج مولاه العزيز وتهدئة نفسه الثائرة

ضد ذلك العدو الذي أفلق باله وعكر صفو حياته وجعل دولته قاب قوسين أو أدنى من الزوال .

ويحدثنا ابن القلانسي أن أفتسكين لما دخل على العزيز في سرادفه ترجل من دابته وقبل الأرض بين يديه وحمل إلى دست قد نصب له ليجلس عليه . فلم يكن من أفتسكين . إزاء الخفاوة به وبرجاله ، إلا أن رمى بنفسه إلى الأرض وألقى ماعلى رأسه وبكى بكاءً شديداً سمع الحاضرون نشيجه وقال : « ما استحققت الإبقاء على ، فضلا عن العفو الكريم والإحسان الجسيم ... » وامتنع من الجلوس في الدست وقعد بين يدي العزيز . وقد ألبسه جوهر على إثر وصوله من ملابس العزيز وهدأ روعه . فجدد الدعاء وتقبيل الأرض وشكر جوهرأ على ما أظهره نحوه من كرم ونبل .

وقد بالغ العزيز في إكرام أفتسكين ، فأسكنه داراً فسيحة ، وأغدق عليه صلاته وعطاياه ، وظل أفتسكين ممتعا بنعم العزيز حتى مات في سنة ٣٧٢ هـ . وقد اتهم يعقوب بن كلس وزير العزيز بقتله باسم لترفع أفتسكين عنه ، فأمر به العزيز فحبسه مدة حنقا منه عليه ثم أطلقه .

وهكذا توطد سلطان الفاطميين في سورية ، فأصبحت ولاية فاطمية حاضرتها دمشق . وظلت على ذلك إلى أواخر عهد الدولة الفاطمية ، حيث استقل محمود نور الدين بن زنكي بدمشق واستولى الصليبيون على معظم أرجاء فلسطين ، ثم أصبحت بعد ذلك جزءا من أملاك الدولة الأيوبية .

تقدير جوهر

إلى هنا انتهى بنا البحث في حياة جوهر ، ذلك الكاتب الكبير والقائد المحنك والسياسي الخطير . وقد اختلف علماء الاجتماع في عظماء الرجال وذهبوا فيهم مذاهب شتى . فمنهم من يرى أن الرجل العظيم هو الذي يخلق الظروف ويرغم الحوادث على السير طوع إرادته ، ويضطرها إلى المضي في الطريق الذي يشقه لها ، ومنهم من يرى أن الرجل العظيم هو ابن الساعة ووليده الظروف ، تخلقه الأيام وتنشئه الحوادث وتنتهي له من الفرص ما لا ينهي لغيره وتخلق عليه من مظاهر العظمة ما تضن به على سواه .

وقد اجتمع في جوهر الرايان جميعاً . فإننا لو نظرنا نظرة إجمالية إلى حياة هذا القائد ، رأينا أن عناصر عظمته هي مزيج من الحظ المؤاتي والكفاءة الشخصية النادرة .

ولا غرو فقد كان لجوهر من المواهب ، التي طالما أملت إرادتها على الأيام وفرضت رأيها على الحوادث ، ما يجعل منه قائداً موفقاً سياسياً حكيماً . إلا أن هذا وحده لا يكفي . لو لم تتيح له الظروف الاتصال بالمعز وهو لا يزال ببلاد المغرب ، فيوليه ثقته ويوليه إمرة جنده وقيادة جيشه لإتمام فتح ما بقي من بلاد المغرب وإخضاعها لسلطان الفاطميين . وهنا تظهر مواهبه النادرة وقوة شكيته . فقد أخضع بلاد المغرب كلها لسلطان المعز في أقل من سنة . وهكذا تكاثفت ظروف الرجل ومواهبه في وضع الحجر الأساسي لمجده .

ولم تقف ثقة المعز بجوهر عند هذا الحد ، فقد جملة على رأس الحملة التي وجهها لفتح مصر ونشر الدعوة الشيعية بالمشرق ، بعد أن فشل في ذلك من سبقه من القواد الفاطميين . على أن حظ جوهر في مصر لم يكن أقل منه في بلاد المغرب . فقد سادتها الفوضى وعم فيها الاضطراب عقب وفاة كافور . وبلغت الدولة العباسية درجة كبيرة من الضعف والانحلال عجزت معها عن إرسال الجنود لصد الأعداء عنها كما فعلت من قبل .

وعلى الرغم من وقوف المعز على حقيقة الحال في مصر وما كانت عليه من ضعف ، فقد رأى أن فتحها يحتاج إلى عقل راجح وقيادة حكيمة . فاختار جوهرأ بعد أن خبره كاتباً ووزيراً وقائداً تفتح له البلدان المنيعه في بلاد المغرب أبوابها . وكان جوهر عند ظن الخليفة به ، فتم على يده فتح مصر واتخذها الفاطميون قاعدة لخلافتهم . وكان لمهارة جوهر وحسن سياسته أثر كبير في استتباب الأمن وتأليف قلوب الأهلين بالرغم من بعضهم للمذهب الشيعي ، مذهب الفاطميين .

وقد نفذ جوهر السياسة الفاطمية التي كانت ترمى إلى اتخاذ مصر جسراً يعبر عليه الفاطميون إلى المشرق لتأسيس خلافة فاطمية شاسعة الأرجاء . وكان اختيار المعز جوهرأ لتنفيذ تلك السياسة اختياراً موفقاً . فإن سلطة الفاطميين لم تتوطد في بلاد الشام وفلسطين حتى خرج إليهم جوهر بنفسه بعد أن أخفق في ذلك جعفر بن فلاح ، وانفض الناس من حوله ، وتخاذل عنه الجند وخر صريعاً في ميدان القتال ، لما كان يعوزه من الحزم وبعد النظر وحسن السياسة ، تلك الصفات التي امتاز بها جوهر .

وقد ساعد الحظ جوهرأ ، ففضى على القرامطة وردم عن مصر مهزومين مدحورين ، وطالما ناقوا للإغارة عليها وفتحها كما أغاروا على غيرها من بلدان المشرق . ولولا قوة جوهر ومهارته الحربية لثم للقرامطة ما أرادوا وأزالوا سلطان الفاطميين في مصر ، ولما تثبت دعائمها .

لا زالت آثار جوهر في مصر تنطق بأبى القائد العظيم والفتاح الكبير فهو منشئ القاهرة ، تلك العاصمة التي لم تلبث أن بذت غيرها من العواصم الإسلامية ، وأصبحت منار الحضارة الإسلامية التي أنبسط نورها على الآفاق ، فقد فاقت القاهرة بغداد عاصمة الخلافة العباسية وقرطبة حاضرة الأيوبيين في الأندلس ، وأصبحت مركز العلوم والفنون والآداب ، وكعبة العلماء ، وعط رحال الشعراء والكتّاب . ناهيك ما ذكره ناصري خسرو ، ذلك الرحالة الفارسي الذي طاف بجميع البلدان الشرقية وشاهد بنفسه ما وصلت إليه

من المدينة والحضارة ووقف على ما بلغته من العلم والفن ، فقد قال في كتابه :
« سفر نامه » ، إن القاهرة قد سبقت في عهد الفاطميين هذه البلاد جميعا في كل
ناحية من نواحي الحياة .

ومما يدل على حنكة جوهر وعلو كعبه في السياسة ، أنه لم يلجأ إلى وسائل
الشدة والعنف في نشر المذهب الفاطمي وإنما لجأ إلى الوسائل السلمية . فاعتمد
على المساجد التي اتخذها أشبه بمدارس يتلقى فيها الأهلالي تعاليم هذا المذهب ،
دون أن يفرض على أحد اعتناقه . فقد أنشأ الجامع الأزهر ليكون مركزاً
لتدريس تعاليم المذهب الفاطمي حتى لا يضايق المهرابين السنيين في شعورهم
الديني في المساجد الأخرى . وعلى الرغم من دراسة هذا المذهب فيما عدا
الأزهر من المساجد ، فإن التاريخ لم يذكر لنا أن الناس كانوا يساقون لتلقي
تعاليم هذا المذهب كرهاً . بيد أن هذا التسامح لم يصرف جوهرأ عن الغرض
الأول من سياسة الفاطميين ، وهو تعميم هذا المذهب بين المصريين . فقد لجأ
في جذبهم إليه إلى الوسائل المادية ، وذلك بإسناد مناصب الدولة الهامة إلى
معتنقي هذا المذهب مصريين كانوا أو مغاربة .

وكان جوهر أحسن مثل للحاكم العادل ، فقد كان يجلس للمظالم بنفسه ،
فيقضي بين الناس بالعدل ويرد الحقوق إلى أصحابها ، ويضرب على أيدي
المعتدين والعابثين بالنظام والأمن ، ولو كانوا من خاصته وخلصائه . فقد
ضرب على أيدي الجنود المغاربة ومنعهم من التعدي على الأهالي ، حتى كان
يعاقب المعتدين منهم بالقتل جزاء لهم وردعا لغيرهم . فكان مثله في ذلك مثل
عمرو بن العاص وأحمد بن طولون ومحمد بن طنجج الإخشيد وصلاح الدين
الأيوبي وغيرهم من خيرة الأمراء وكبار الساسة الذين تولوا الحكم في مصر
في العصر الإسلامي .

ولا شك أن جوهرأ يعتبر مؤسس الحضارة الفاطمية في مصر خاصة
والشرق هامة . وكان مولاه المعز يثق به ثقة لا حد لها . فقد ترك له ولاية

مصر أربع سنوات لم يفكر خلالها في الحضور إليها وتسلم مقاليد الحكم فيها حتى ألح عليه جوهر في ذلك، مما يدل على أن المعز كان يرى في جوهر الجدارة بالاضطلاع بحكم مصر وإدارة شئونها .

على أن نفوذ جوهر لم يلبث أن تضائل أثر قدوم المعز إلى مصر ، فأفل نجمه ودالت دولته وهذا أمر طبيعي : فقد عرف المصريون جوهر أ وأحبوه ودانوا له بالطاعة وأصبح ذا شخصية بارزة ونفوذ قوى . فلو أشركه معه المعز في حكم هذه البلاد لسقطت هيبة الخليفة الفاطمي وتلاشى سلطانه . لذلك لا نعجب إذا صرف جوهر عن الأعمال العامة عقب وصول المعز ، فلم يعد إلى الظهور إلا في فتوح سورية في عهد العزيز حين اشتد خطر القرامطة وأفتكين . وكان ذلك في آخر عهد جوهر بأعمال الدولة . فإنه بعد أن وطئ سلطان الفاطميين في سورية وعاد إلى مصر سنة ٣٦٨ هـ ، أمهله العزيز كما أمهله المعز من قبل ، فلزم داره وأصبح نسيا منسيا .

وقد أحفظ جوهر إهمال المعز والعزيز له ونال من نفسه عدم تقديرهما ما كان له من الأيادي في توطيد سلطان الفاطميين . فقد ذكر المقرئى^(١) أن منجوتكين^(٢) التركي خرج من قصر العزيز سنة ٣٨١ وهو منقط جواده ، وفي حاشيته القائد جوهر وابن عمار وغيرهما من رجال الدولة مشاة . وكانت يد جوهر في يد ابن عمار . فتعهد ابن عمار وزفر زفرة كاد ياشق

(١) الخطط ج ١ ص ٣٧٩

(٢) حدث جوهر أبا عمار أنه لما وصل المعز إلى مصر عرض عليه الأسرى . وكان من بينهم منجوتكين هذا ، وكان لا يزال غلاماً . فلما رآه المعز نظر إليه وتأمله ، فلما انتهى جوهر من عرض الأسرى قال للمعز : يا مولانا لقد فعلت لما رأيت هذا التركي ما لم تفعله مع من تقدمه . فقال : يا جوهر اسوف ترى أن يكون لبعض ولدنا غلام من هذا الجنس تتم على يده فتوحات عظيمة . ثم قال جوهر لابن عمار : وأنا أظن أن ذاك الغلام هو الذى كان يعنيه مولانا المعز ،

لها صدره وقال : « لا حول ولا قوة إلا بالله » ، فزرع جوهر يده منه وقال :
 « قد كنت عندى يا أبا عمار أثبت من هذا . . . لكل زمان دولة
 ورجال . أريد نحن أن نأخذ دولتنا ودولة غيرنا ؟ لقد أرجل لى ، ولما
 الممن لما سرت إلى مصر أولاده وإخوته وولى عهده وسائر أهل دولته ،
 فتمعجب الناس من ذلك . وها أنا اليوم أمشى راجلا بين يدى منجوتسكين .
 أعزونا وأعزوا بنا غيرنا . وبعد هذا أقول اللهم قرب أجلى وموتى ، فقد
 أنفت على الثمانين ، .

وفى تملك السنة اعتل جوهر فعاده العزيز بالله ، وأرسل إليه خمسة آلاف
 دينار ، ثم بعث إليه الأمير منصور بن العزيز خمسة آلاف دينار أخرى .

وتوفى جوهر فى يوم الاثنين ٢٣ ذى القعدة سنة ٣٨١ هـ . فبعث إليه
 بالحنوط والكفن الخليفة العزيز وابنه المنصور أبو على ، الذى ولى الخلافة
 بعد أبيه وتلقب بالحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١ هـ) . وكفن جوهر فى
 سبعين ثوبا ما بين مثقل وموثى بالذهب ، ثم صلى عليه العزيز بالله ، ودفن
 بالقرافة الكبرى ، على ما ذهب إليه ابن إياس^(١) . وخلع العزيز على ابنه الحسين

(١) ج ١ ص ٥١

انفرد ابن إياس بذكر الموضع الذى دفن فيه جوهر . فلم يذكر لنا ذلك غيره
 من المؤرخين كابن الزيات فى كتابه « السكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة ، والسجاري
 فى كتابه « نخبة الأحباب وبنية الطلاب فى الخطوط والمزارات والتراجم والبقاع
 المباركات » ، وهما من أهم المصادر التى يمكن الرجوع إليها فى معرفة الأماكن
 التى دفن بها مشاهير رجال التاريخ وكذلك المقريزى الذى عنى باستقصاء كل ما يتعلق
 بالفاطميين وأبو المحاسن والسيوطى وغيرهم من مؤرخى مصر الإسلامية .

أما المقبرة التى كانت بالجهة الشمالية للأزهر إلى وقت قريب ، والتى يزعم بعض الناس
 أن جوهر آ الصغرى دفن فيها ، فهى مقبرة جوهر القنباغى من أمراء المماليك ، وإليه
 تنسب مدرسة الجوهريّة (الخطوط التوفيقية : ج ٤ ص ٢٠ نقلا عن الضوء اللامع للسجاري)

ابن جوهر وجعله في رتبة أبيه ، ولقبه بالقائد بن القائد ، وممكنه من جميع ما خلفه أبوه . ولم يزل محل عطف العزيز ورعايته حتى ولى الحاكم بأمر الله ، فقلده البريد والإشياء سنة ٥٣٨٦ (سنة ٩٩٠) ورد إليه النظر في أمور الرعية وتدير أمور الدولة^(١) .

هكذا انتهت حياة جوهر ، ذلك الكاتب العظيم والقائد المحنك والسياسي الماهر . فطويت بموته صفحة من صفحات المجد والعظمة . واقد كان جوهر عاقلا عادلا ، محسنا إلى الناس . لهذا لا نعجب إذا حزنوا لوفاته . فرثاه الشعراء على اختلاف مذاهم وعقائدهم حتى لم يبق بمصر شاعر إلا رثاه وشاد بأدبه الجم ، وعليه الغزير ، وشخصيته الكبيرة ، وصفاته العالية ، ومواهبه النادرة .

فرحم الله جوهرأ فإن مثله في الرجال قليل .

(١) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ١٤ - ١٥ .

الباب السادس

دولة الفاطميين

التي أقامها جوهر الصقلي في مصر

(١) خلفاء العصر الفاطمي الأول (٣٦٢ - ٤٨٧ هـ):

ظل جوهر الصقلي يحكم بنفسه منذ أن تم له فتحها عام ٣٥٨ هـ حتى قدم إليها المعز سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) فاستأثر بكل ما كان يتمتع به جوهر من النفوذ وأخذ يعمل منذ تقلده زمام الخلافة على تنمية موارد الثروة واهتم بنشر عقائد المذهب الفاطمي في مصر وغيرها من البلاد وأنشأ أسطولا عظيما لم ير مثله ، ومات بعد وصوله إلى مصر بقليل .

وولي الخلافة بعد المعز ابنه العزيز بالله (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ) وهو في الثانية والعشرين في عمره وكان قد قدم مع أبيه إلى القاهرة سنة ٣٦٢ هـ وعهد إليه أبوه بالخلافة . وما كاد العزيز يوطد سلطته في مصر حتى وجه عنايته لاسترداد بلاد الشام وفلسطين اللتين كانتا تابعتين لمصر في عهد الطولونيين والإخشيديين . وتم له ما أراد وتوطد سلطان الفاطميين في سورية وأصبحت تلك البلاد ولاية فاطمية ، حاضرتها دمشق ، وظلت على ذلك إلى أواخر عهد الدولة الفاطمية .

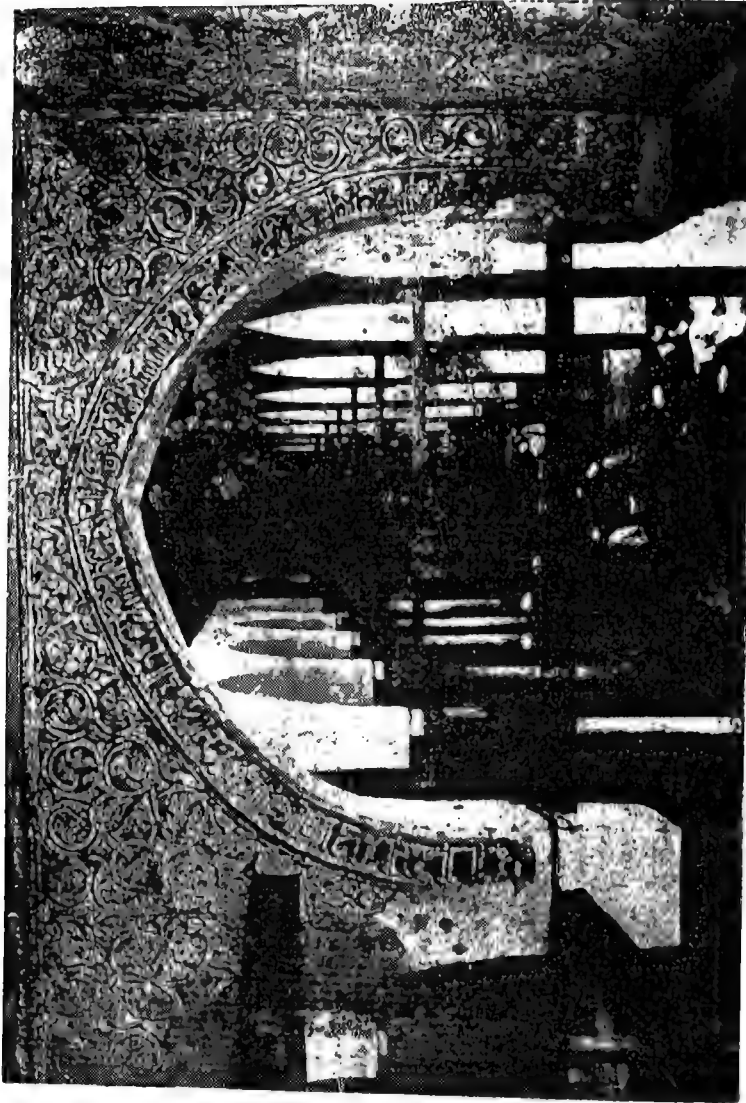
ووجه الفاطميون في عهد العزيز بالله اهتمامهم إلى بث عقائد المذهب الشيعي ، وأصبحت كل أمور الدولة في أيدي الشيعة أو بعبارة أخرى في أيدي المغاربة أنصار الفاطميين ، ويرجع السبب في ذلك إلى أن سياسة الفاطميين كانت ترمي إلى إضعاف نفوذ السنن تدرجاً .

وبنى العزيز كثيراً في المنشآت التي ندل على وفرة ثروة مصر في عهده .
القصر الغربي وكان يقع غربى القصر الشرقى الذى بناه جوهر للخليفة .
شرقى مدينة القاهرة فى المكان الذى يقع فيه الآن خان الخليلي ومسجد الحـ
تقريباً . وكان القصر الغربى الذى بناه العزيز أصغر من القصر الشرقى ، و
أطلق عليه القصر الغربى الصغير تمييزاً له عن قصر المعز وكان يقع مكان
النحاسين وجامع قلاوون تقريباً . وبين القصرين ميدان فسيح اعرض
أطلق عليه اسم « بين القصرين » .

وابتنى العزيز قصوراً أخرى فى عين شمس كما بنى فى عهده قصر البحـ
يقول ابن خـكان أنه لا يوجد شبيه له فى الشرق ولا فى الغرب وإهتم
المساجد كمسجد الحاكم الذى أسسه سنة ٣٧٠ هـ ومات قبل أن يتمه فأنتمى
الحاكم ونسبه لإبيه . وأقام العزيز فى جامع عمرو منبرا كان آية من آيات الفـ
كذلك أنه أنشأ أثاثاً فخماً وزينه بالاستور الحريرية المزركشة بالذهب وكان
كلها من رسم ولون واحد .

وكان الخليفة العزيز أول من حوّل الأزهر إلى جامعة وجعلها تحت
إشراف وزيره يعقوب بن كـس ونقل إليها الكثير من الكتب والمصاحف
وأجرى على الأساتذة المطايا والصلوات فكان يخلع النفيسة فى الأعيـ
ويحلمهم على البنغال اعترافاً بما لمركزهم العلمى من أهمية وتقدير . وسرعان
التحق بالجامعة الأزهرية مشاهير العلماء فى الفقه الإسلامى واللغة والنهـ
والمنطق والرياضة والطب وغيرها .

ومن أظهر صفات العزيز ميله إلى الأبهة وخبرته بالجواهر والغرام بالاصـ
وخاصة صيد السباع ، كما كان ذكياً أديباً مستنيراً ، يجيد عدة لغات ، كريماً
محباً للفقراء ، يعطف على النصارى واليهود . ومرض العزيز فى بلبس فى شـ
رجب سنة ٣٧٦ هـ وكان فى طريقه إلى الشام . ولما اشتدت عليه وطـ
المرض ، عهد إلى ابنه المنصور الذى تلقب بعده بالحاكم بأمر الله . ودفـ



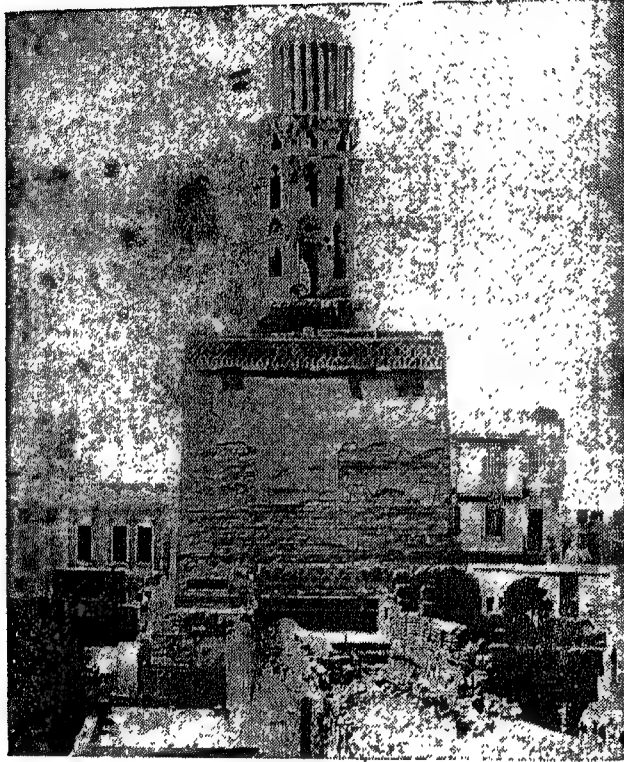
بعض عقود الجامع الأزهر - وهي من عهد إنشائه

العزب مع أبيه المعز في إحدى حجرات القصر الشرقى الكبير وله من العمر ثلاث وأربعين سنة .

ولى الحاكم الخلافة (٢٧٦ - ٤١١ هـ) بعد وفاة أبيه وكان إذ ذاك حدثاً فى الحادية عشرة من عمره فقام بأمر تربيته مربييه برجوان . وحياة الحاكم متناقضة متضاربة حتى أطلق عليه بعض المؤرخين صفات مختلفة وسماء الأستاذ مرجوليوث Margoliouth ، الحاكم المجنون ، The Mad Hakem ، وقال عنه المقرئى ، إنه كان يعتريه جناف فى دماغه ولذلك كثير تناقضه وكانت أفعاله لانعمل وأحلامه وسياسته لا تقول ، . من ذلك أنه أصدر سنة ٣٩٥ هـ مرسوماً بحرم بيع الملوخية لأنه أثر عن معاوية أنه كان يحبها ، ونهى عن استعمال الجرجير لأن عائشة كانت تأكله ، ونهى أيضاً عن استعمال القرع وطلب إلى الفلاحين أن يعطروه ونائق كتابية بعدم زرع الملوخية والقرع والجرجير لأن أبى بكر وهائشة ومعاوية كانوا يحبون أكلها ثم نهى عن بيع الفقع وهو نوع من الخمر وشدد فى ذلك لأن علياً كان يكرها . وقد أساءت هذه الأوامر إلى السذجين الذين كانوا يكونون السراد الأعظم من المصريين .

وادعى الحاكم نجسم الإله فى شخصه ونسب إليه أنصاره بعض الصفات التى لا يتصف بها إلا الله حتى اعتقد البعض أن بيده الحياة والموت ، فكان إذا بدا للناس فى الطرقات سجودوا له !

وذكر المؤرخ ابن زولاق أن الحاكم اتخذ لنفسه جواسيس من النساء يندسسن فى دور بعض الناس لكشف ما يحدث فى هذه الدور وتقديم تقارير عن ذلك فى اليوم التالى إلى الخليفة الذى كان يستدعى هؤلاء ويخبرهم بما حدث فى بيوتهم . وكان نتيجة هذا أن أصبح بعض الناس يمتقدون أنه يعلم بالغيب .



منارة جامع الحاكم

— ١٢٤ —

وظهر تناقض الحاكم جلياً : حين حرم على الناس الخروج ليلاً من مغرب الشمس حتى مطلع الفجر ومنع النساء من الخروج ومن الظهور غير متنقيات ولا يقبعن الجنائز أو يظهرن للناس في حالة منافية للأدب والحشمة وحرم عليهن الظهور في أعلى المنازل ودخول الحمامات العامة ومنع صانعي الأحذية من أن يعملوا أحذية خاصة بهن ، وظل النساء في بيوتهن سبع سنين حتى ولي ابنه الظاهر .

ولكن رغم ذلك فإن الحاكم قد قام ببعض أعمال نافعة ، من ذلك أنه أتم بناء جامع الحاكم الذي بدأه أبوه العزيز وزاد في بناء الجامع الأزهر . ومات الحاكم سنة ٥٤١١ هـ مقتولاً وقيل إن أخته ست الملك كان لها يد في قتله .

وجاء بعده ابنه الظاهر (٤١١ - ٥٤٢٧ هـ) وتمتع المصريون في عهده بالسلام والطمانينة بعد عهد الاضطهاد والفرس الذين اتصف بهما عهد أبيه الحاكم وكان الظاهر رجلاً عاقلاً عادلاً حليماً دمث الأخلاق فقد ألغى القوانين التي كان قد أصدرها أبوه .

وجاء بعد الظاهر ابنه المستنصر (٤٢٧ - ٥٤٨٧ هـ) وقد حكم مصر والبلاد التابعة لها ستين سنة ، وظهرت مصر في أوائل عهده بمظهر القوة والعظمة . وفي عهده زار مصر ناصري خسرو الشاعر الفارسي فوصلها في صفر سنة ٥٤٣٩ هـ وأقام فيها إلى ذى الحجة سنة ٥٤٤١ هـ ، وكانت مصر حين زارها هذا الرحالة في عصر المستنصر في مجبوحة من العيش وكان الخليفة محبوباً من الشعب ولم يكن أحد يخشى سلباً أو نهباً وكان تجار الجواهر والحرير لا يحفلون بإخلاق حوارياتهم .

ولسكن بعد ذلك عاودت مصر المصائب وقد خفف من وقعها الوزير اليازورى الذى قبض على زمام الأمور تسع سنوات وعالج خطر المجاعة بوضع يده على مخازن الغلال ، وبعد وفاة هذا الوزير عادت الفوضى إلى مصر . وكانت السلطة إذ ذاك بيد الجنود التركية فانتهزوا تلك الفرصة ونهبوا المدينة وأصبح بيت المال خلوا من المال المطلوب لإرضاء هؤلاء الجنود فلجأوا إلى القوة للحصول على أرزاقهم المتأخرة . وفى سبيل ذلك أتلفوا قصور الخلفاء الجميلة وبددوا المجموعات الفنية التى لا تقوم ، والأحجار الكريمة والمجوهرات ، وأغاروا على المساكن المنقطعة النظير .

وقد شل الحركة الزراعية والتجارية فى الديار المصرية ، ذلك الرعب الذى ألقته الجنود السودانية المنهبة فى جميع أنحاء البلاد . ولم يكن هناك ما يخفف وطأة انخفاض النيل أو ما يساعد على زراعة الأراضى للفصل الجديد فشمرت مدينة القاهرة ومدينة القسطنطين بندرة الاقوات شعوراً قاسياً ، وبدأ ما عرف فى تاريخ الفاطميين باسم «الشدة العظمى» ، وفيها بلغ ثمن الرغيف ١٥ دينارا . وكانت المنازل تباع بربع من الدقيق وعرضت الجواهر الثمينة نظير شئ من الطعام فلم يوجد من يشتريها ويبيع الخيل والحير والكلاب والقطط بأثمان هائلة ثم نذر وجودها وقلت دواب اسطبل الخليفة وأصبح الناس يخطفون بعضهم بعضاً وبيع لحم الإنسان عند الجزارين وأجرت بنت أحد الفقهاء رخيصة على الخليفة كل يوم حتى رأى المستنصر نفسه فى إحدى حجراته جالسا على حصير بالية لا يساقبها .

وانتهت أيام الشدة العظمى بموت ناصر الدولة بن حمدان زعيم الجنود التركية ، وتوفى خلال سنة ٥٤٦٥ هـ ، وتقلد بدر الجمالى الوزارة . وكان أرمنى الأصل ، يعرف فيه المستنصر الهمة والبسالة وحسن الإدارة ، فاستجد به الخليفة ليقضى على العناصر التركية المتنافرة فجاء إلى القاهرة وقبض على هذه العناصر بيد من حديد ووضع حداً للفوضى والجرائم وأعاد عهد سيطرة القانون ثم

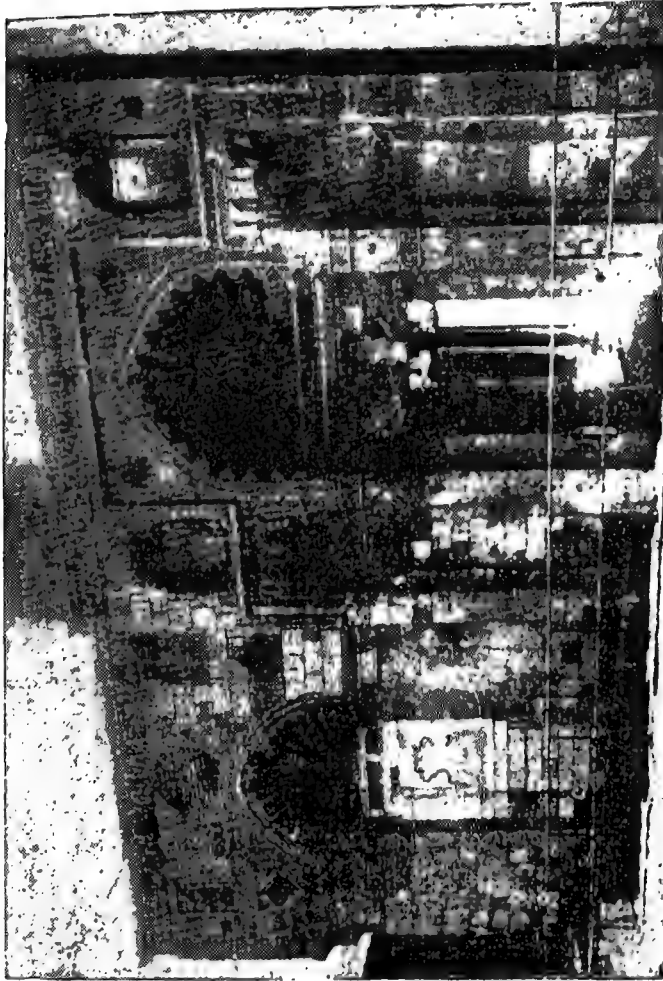
تفرغ لإصلاح ما أفسده الأتراك : فحسن المدينة بأن أحاطها بالأسوار الذي يعرف باسم سور بدر الجمالى وأصلح أبواب القاهرة وبني جامع الجيوشى وتلقب باسم أمير الجيوش . ومات المستنصر وبدر الجمالى سنة ٤٨٧ هـ ، أى فى سنة واحدة .

٢ - خلفاء العصر الفاطمى الثانى (٤٨٧ - ٥٦٧ هـ) :

بعد المستنصر ، جاء الخليفة المستعلى (٤٨٧ - ٤٩٥ هـ) ، ولم يقع فى أيامه ما يستحق الذكر ، ولم يكن له من الأمر شيء كثير أو قليل ، لأن السلطة والنفوذ فى عهد خلفاء العصر الفاطمى الثانى أصبحتا فى يد الوزراء ، وصارت تلك الظاهرة قاعدة الحكم ، منذ أن بدأت وزارة الجمالى : فكان المستعلى مع وزيره الأفضل بن بدر الجمالى ، مسلوب السلطة ، كما كان المستنصر مع أبيه بدر .

وبعد المستعلى جاء الأمر (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ) ، وقبض على ناصية الحكم فى عهده الوزير الأفضل بن بدر الجمالى وتمكن الأمر من بناء قصر المودج فى جزيرة الروضة لزوجته البدوية ، ومن إنشاء جامع الأقمر . وتوفى عام ٥٢٤ هـ وخلفه الخليفة الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٤ هـ) الذى كان هو والخليفة الأمر مسلوبى السلطة فى عهد ذلك الوزير وفى عهد ابنه أبى على بن الأفضل .

وبذلك فإنه فى ذلك العهد الأخير من أيام الفاطميين ، أصبح الوزير رب السيف والقلم بمعنى أن كل أمور الدولة قد آلت إليه فضعف نفوذ الخلفاء ضعفا واضحا بحيث أصبحوا طوال ذلك العهد تقريباً تحت نفوذ الوزراء الذين استغفحت قوتهم وتضخمت أرونتهم . ولا شك أن الخلفاء قد شعروا بشيء كثير من المضايقة لسلب السلطة منهم . وبعد مقتل لوزير الأفضل فى عهد الخليفة الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٤ هـ) تولى الوزارة أبو على أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالى ففتح الخليفة من النظر فى أمور الدولة ، ومنع الناس من زيارته إلا بإذن منه ، ثم استولى على ما فى القصور من التحف ومنع ذكر اسم الخليفة فى



جامع الأفر - الذى بناه الخليفة الأمر الفاطمى

الخطبة وذكر اسمه بدلا منه وتلقب بألقاب منها : ناصر إمام الحق ، وهادى القضاة إلى اتباع شرع الحق ، ورافع الجور عن الأمم ، مالك فضيلتى السيف والقلم . وفى هذا منتهى الدلالة على مبلغ سطوة الوزراء وضعف الخلفاء .

وفى عهد الحافظ الظافر (٥٤٤ — ٥٤٩ هـ) ثم الخليفة الفائز (٥٤٩ — ٥٥٥ هـ) ثم جاء بعدهما العاضد (٥٥٥ — ٥٦٧ هـ) وهو آخر الخلفاء الفاطميين . وكانت مصر فى عهد هؤلاء الخلفاء الثلاثة فى عهد انحلال ، انتهى بسقوط هذه الدولة .

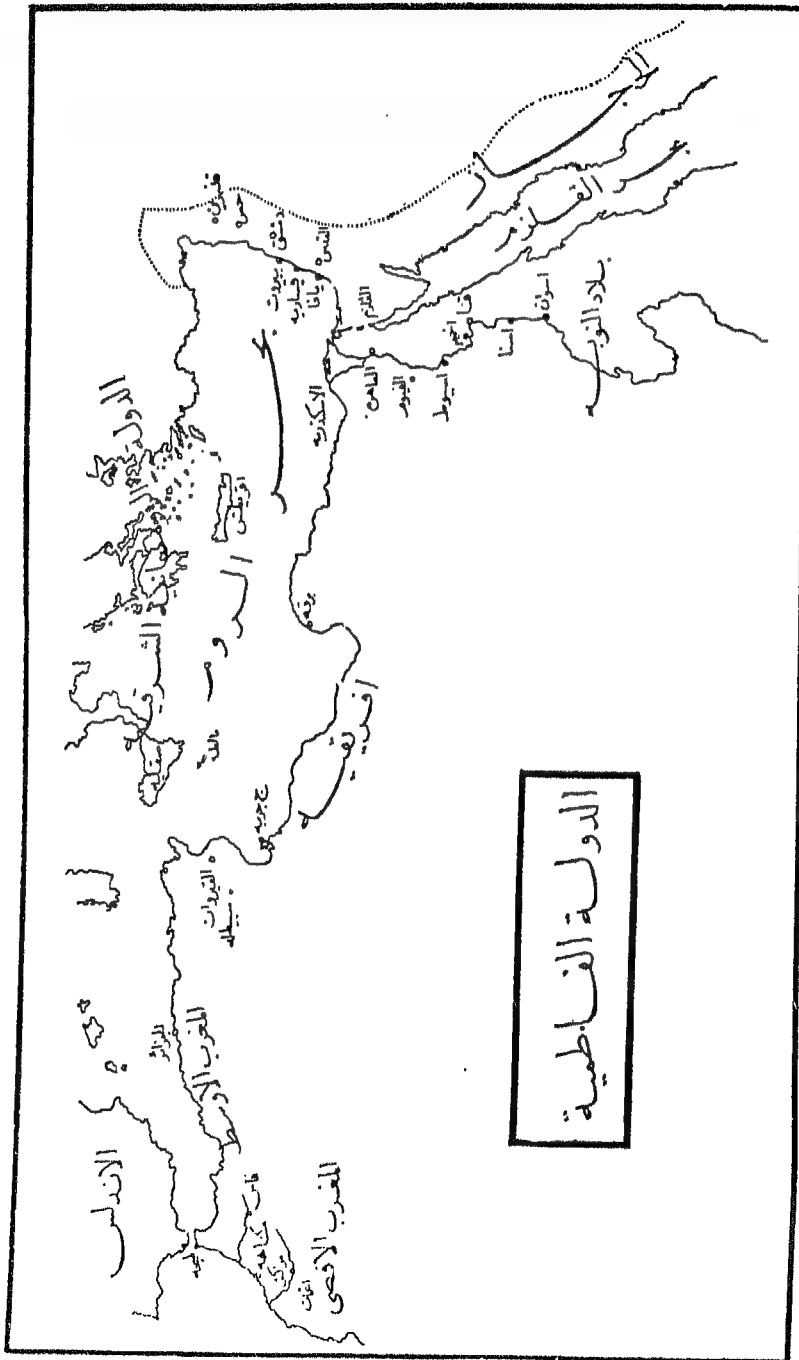
٣ — نفوذ سلطان الفاطميين :

يجب على من يريد معرفة كيف خرجت الأقطار التى أصبحت تحت سيطرة الفاطميين عن سلطانهم ، أن يقتنع كيف تأسست الدولة الفاطمية فى المغرب وكيف امتدت بعد ذلك إلى الشرق ونحوها إلى إمبراطورية :

١ — استولى أبو عبد الله الشيعى داعى دعاة الفاطميين على إفريقية وكانت تشمل المنطقة المعروفة اليوم باسم تونس ، ثم مد عبيد الله المهدى أول خلفاء الفاطميين نفوذه على بلاد المغرب حتى مدينة فاس فى مراکش ، كما اعترف بسلطانه حاكم صقلية ، وبعث عبيد الله المهدى حملتين لغزو مصر ، وكان من المحتمل أن يستولى عليها لولا قيام أهالى بلاد المغرب بالثورات فى وجهه طوال مدة حكمه .

٢ — وفى عهد المعز ، انتشر سلطان الفاطميين على شمال إفريقية ، بفضل مهارة جوهر الصقلى وزيرى بن مناد الصنهاجى . وفى سنة ٣٥٨ هـ فتح جوهر مصر وضمها إلى سلطان الفاطميين ، ثم فتح بعض جهات سورية ، ودعا أمير مكة للمعز الفاطمى على منابر بلاده .

٣ — وفى عهد العزيز الفاطمى ، امتد نفوذ الفاطميين على جزيرة صقلية



في البحر الأبيض المتوسط ، وانضمت جميع بلاد الشام إلى سلطان الفاطميين بفضل ما أظهره الخليفة العزيز والقائد جواهر من المهارة الحربية .

٤ — وفي الشطر الأول من خلافة المستنصر ، اعترف الصليحي الشيعي الذي أخضع بلاد اليمن والحجاز من حضرموت إلى مكة بسلطان المستنصر في اليمن حول سنة ٤٥٥ هـ . وفي عهد المستنصر أقيمت الخطبة على منابر بغداد نحو من سنة على يد البساسيري .

هذا هو مدى امتداد الإمبراطورية الفاطمية في عهد الخلفاء الفاطميين . ولكن منذ عهد الخليفة الظاهر الفاطمي الذي اعتلى الخلافة منذ عام ٤١١ هـ ، بدأت الدولة الفاطمية في الانكماش .

١ — في بلاد الشام : خرج صالح بن مرداس الكلبي على الخليفة الظاهر واتجه إلى حلب وظل يحاصرها إلى أن استطاع أخيراً الاستيلاء عليها ، وكذلك تغلب ابن المنرج البدوي صاحب الرملة على أكثر بلاد الشام ، وكان لذلك أثره في اضمحلال نفوذ الفاطميين في هذه البلاد .

٢ — وفي الحجاز : فقد حدث في عهد الظاهر أيضاً ، أن أحد الحجاج المصريين ضرب وجه الحجر الأسود ثلاث ضربات متواليات ، وقال : إلى متى يعبد الحجر ولا محمد ولا عليّ يقدران على مني عما أفعله ، إلى أريد هدم هذا البيت . فلما علم بذلك المسيكون ناروا على المصريين وقتلوا جماعة منهم ونهبوا ما معهم من الأموال ، وكان من أثر ذلك أن ساءت العلاقة بين المصريين والحجازيين ، وظلت الفتنة مشتعلة بين الفريقين إلى أن استطاع أحد القواد المصريين ويعرف بأبي الفتوح حسن إخمادها .

٣ — وفي غزنة شمال غرب الهند : كان يمين الدولة محمود بن سبكتكين صاحب غزنة قد عظم أمره ، فكتب إليه الظاهر كتاباً يدعوه فيه إلى طاعته وأرسل إليه الخلع . ولكن ابن سبكتكين لم يعجب بالخليفة الظاهر .

ولم يكده يتولى الخلافة فى مصر ، الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، الذى
تولى الخلافة عام ٤٢٧ هـ ، حتى تقاصت الإمبراطورية الفاطمية وانكسرت إلى
أضيق حدودها :

١ - فنار أهل إفريقية (٤٤٣ هـ) ضد الحكم العاطمى وأظهروا استيائهم
من عقائد المذهب الشيعى واعترفوا بسلطان العباسيين ، ثم تسكنات فى بلاد
المغرب دول إسلامية مستقلة .

٢ - استقل روجر الزمردى بصقلية ، بعد أن استولى عليها من الفاطميين
(٤١٣ هـ) . ورحل عنها العلماء العرب وخضع أهلها لسلطان الفرنجة .

٣ - قطعت الخطبة للمستنصر فى بلاد اليمن ، على أثر وفاة الصليحي أمير
اليمن ، الذى كان قد أقام الخطبة للفاطميين .

٤ - قطع كل من أمير مكة والمدينة الخطبة للمستنصر (٤٦٢ هـ) على أثر
انقطاع الأموال التى كانت ترد إليهما من مصر ، بسبب ما أصاب البلاد المصرية
من الاوبئة والمجاعات التى مزقت شملها كل ممزق ، وخطبا للخليفة القائم بأمر
الله العباسى .

٥ - تمكنت جيوش العباسيين التى أرسلها ملككشاه الساجوقى إلى الشام
من فتح الرملة وبيت المقدس ثم من فتح دمشق (٤٦٧ هـ) وقطع الخطبة عن
المستنصر وإحلال الخليفة العباسى فى الخطبة مكانه .

٦ - لم يستمر إشراف الخليفة العباسى على شمال إفريقية ، بعد ثورة أهالى
تلك الجهات ضد حكم الفاطميين واعترفهم بسلطان العباسيين ، فإن الفرنجة
بعد استيلائهم على جزيرة صقلية تابعوا سيرهم حتى وصلوا إلى ساحل إفريقية
الشمالى ، فاستولوا على مدينة المهدية العاصمة الأولى للدولة الفاطمية ببلاد

المغرب ، وظل الفرنجة بها إلى أن أجلاهم عنها الموحدون تحت قيادة زعيمهم عبد المؤمن بن علي الذي استطاع (٥٤٠ هـ) أن يحشد جيشاً كبيراً غزا به بلاد شمال إفريقيا فاستولى على مراکش والجزائر ثم على تونس ، وتابع الزحف شرقاً حتى حدود مصر الغربية وضم إلى سيطرته طرابلس وبرقة . وبذلك تم لعبد المؤمن زعيم الموحدين ببلاد المغرب الاستيلاء على جميع أملاك الدولة الفاطمية في شمال إفريقيا .

٧ - استقل نور الدين محمود بن زنكي بحلب ودمشق ، ثم احتل الصليبيون المدن الساحلية في فلسطين وسوريا . وما لبثت مصر والبقية الباقية من البلاد السورية أن أصبحت محل النزاع بين نور الدين محمود والصليبيين عقب اشتداد النزاع على كرسى الوزارة في العصر الفاطمي الثاني ، وظهرت الجيوش النورية والصليبية على أرض مصر . وكان من أثر الحملات النورية على مصر بقيادة شيركوه ، أن أسندت الوزارة في مصر في عصر العاضد آخر الخلفاء الفاطميين إلى شيركوه . وبوفاة شيركوه بعد شهرين من وصوله إلى الوزارة ، أسندت الوزارة إلى ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ، الذي أعاد إلى الأذهان سيرة أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية ومحمد الإخشيد مؤسس الدولة الإخشيدية ، إذ استطاع صلاح الدين تأسيس الدولة الأيوبية التي استقلت بمصر مع التبعية الاسمية للخلافة العباسية . ولم تعد مصر بذلك مقر خلافة بل أصبحت دار سلطنة .

٤ - سقوط الفاطميين :

ويرجع سقوط الفاطميين إلى أسباب عدة ، من أهمها : أن الخلفاء الفاطميين لم يتركوا البساطة التي كانت تمتسز بها حياتهم الأولى أيام حكمهم في شمال إفريقيا فغمسوا في الترف والبذخ في تصوراتهم الجميلة في القاهرة وجعلوا إدارة دولتهم في يد مواليتهم من البربر . فكان من أثر هذه السياسة أن اغتصب

الوزراء تدريجاً تفوز الخلفاء حتى أصبحوا يلقبون بلقب الملك بينما كان سادتهم الخلفاء منزوين في قصورهم . وبعد أن كان نفوذ الفاطميين يشمل في الشطر الأول من حكمهم شمال إفريقيا والشام وجزيرة رودس وذكرت اسماء الخلفاء الفاطميين في الخطبة في الجوامع ما بين المحيط الأطلسي والبحر الأحمر وفي اليمن والحجاز والموصل .

رغم هذا ، فإن قوة الفاطميين ابتدأت في الانحلال وذهبت أسعد ساعات الخلافة الفاطمية ، بسبب تهاون كبار رجال الدولة في اختيار الخلفاء الأكفاء ومبايعة الأطفال بالخلافة ليسهل على الوزراء والحجاب الأفراد بالسلطة . لذلك فإنه في سنة ٤٤٣ هـ رفض أهالي شمال إفريقيا عقائد المذهب الشيعي رفضاً نهائياً . وانتهى الاعتراف بالخلافة الفاطمية في بلاد العرب سنة ٤٧٣ هـ ، وكان العهد المظلم الذي أعقب وفاة الوزير اليازوري قبل ذلك . كذلك قامت الحروب العنصرية بين الجنود المرتزقة من الأتراك والسودانيين وإن كان تقلد بدر الجمالي للوزارة قد وضع حداً لمدة قصيرة لهذا الاستبداد العسكري .

وإن البحث الدقيق في أسباب سقوط الدولة الفاطمية يدلنا على أن السبب الأساسي يرجع غالباً إلى الحروب الصليبية . فإن تلك الحروب قد عجلت بزوال دولتهم الفتية لأن اشتباك الفاطميين مع الصليبيين في الشام وعدم قدرتهم على الوقوف أمامهم والخيولة دون امتلاكهم لبيت المقدس ، قد أوقف نور الدين صاحب دمشق والصليبيين على ضعف الخلافة الفاطمية فتوجهت أنظارهم لامتلاك هذه البلاد وأخذ كل منهما يعمل على امتلاكها .

وقد ظهرت إذ ذاك عظمة صلاح الدين ، الذي كان نور الدين محمود صاحب حلب ودمشق قد أرسله إلى مصر مع عمه اسد الدين شيركوه على رأس جيش لقتال الصليبيين وطردهم من مصر . ولما تم له ذلك عين صلاح الدين وزيراً بعد وفاة أسد الدين شيركوه وخصص جهوده كلها لطرد الصليبيين من بقية البلاد

التي فتحوها . ثم عمل صلاح الدين على تثبيت مركزه في مصر فتمكن بحسن سياسته أن يكتسب ثقة الأهلين ، فأسند مهام الدولة إلى أنصاره وظل يعمل على إضعاف نفوذ الخليفة العاضد الفاطمي - حتى جعله سجين قصره ، فأثار ذلك سخط أهل القصر وأتباع الخلافة وجنده من السودان ودبروا المؤامرات للقضاء عليه . ولكن صلاح الدين علم بهذه المؤامرة وأمر بمراقبة زعيمها ، وتمكن من القبض عليه وقتله كما قتل كثيراً من السودانيين . فثار خمسون ألفاً الأخذ بثأر ذلك الزعيم وكان يسمى نجاح واشتبكوا مع جند صلاح الدين في المعركة المعروفة باسم « بن القصرين » وأحرق في هذه الموقعة كثير من المنازل والشوارع ، ودارت الدائرة أخيراً على السودانيين فمروا إلى الجيزة ومنها ذهبوا إلى الصعيد ، واستمروا في ثورتهم إلى أن قضى عليهم نهائياً في سنة ٥٧٢ هـ .

ولما توطلت أقدام صلاح الدين في مصر ، شرع يرسل الحملات ضد الفرنجة ، وبعد أن تم له النصر عليهم طلب من نور الدين أن يرسل إليه أباه وأقاربه فلبي طلبه . وكان من أثر انتصار صلاح الدين على الفرنجة في دمياط ، أن تعلق به المصريون على اختلاف نحلهم من شيعيين وسنيين ، فانفقوا معه على محاربة أعدائهم من الفرنجة .

كذلك استقرت سلطة صلاح الدين على أساس متين من حسن التفاهم بينه وبين المصريين حتى استطاع أن يسند المناصب الدينية في مصر إلى الفقهاء المتضامين في المذهب السني ، بل لقد جرى في سياسته إلى أبعد من ذلك وهو التمسيد لقطع الخطبة للخليفة الفاطمي . وانضوى تحت لواء صلاح الدين كل رجالات الدولة وسقطت إلى الحضيض سلطة الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ، كما استطاع صلاح الدين أن يجمع العناصر التي لم يثق بها في جيشه . ومن الطبيعي أن يرغب نور الدين وهو من خلافة السنة في إحلال اسم الخليفة العباسي في الخطبة محل اسم الخليفة الفاطمي وهو عمل ينطوي تحته إدارة الدولة الفاطمية .

وقد علم صلاح الدين برغبة نور الدين ، ولكنه تردد في تنفيذ هذه الرغبة لأنه خاف أن يثير هذا العمل أهالى مصر . ولكن نور الدين تشدد في الطلب .

وكان الخليفة العاضد مريضاً في ذلك الوقت ، فعقد صلاح الدين مجلساً من الأمراء واستشارهم في مسألة ذكر اسم الخليفة العباسى بدل اسم الخليفة الفاطمى فوافقهم بعضهم ، واخذوا على عاتقهم تصديده ، ورأى الآخرون خطورة هذا الاقتراح . وكان في هذا المجلس رجل فارسى اسمه الأمير اعترم أن يتولى بنفسه هذا الأمر وصعد في يوم الجمعة إلى المنبر قبل الخطيب ودعا للخليفة العباسى المستضىء فلم يحتاج أحد على ذلك وأمر صلاح الدين في الجمعة التالية بإقامة الخطبة للخليفة العباسى .

وهكذا تم ذلك التغيير من غير أن يلقى مقاومة ، ولم يخبر الخليفة العاضد بذلك . وكان مريضاً ، وقال أعضاء أسرته : إن عوفى فهو يعلم ، وإن توفى فلا يلزمى ان نفجعه بهذه الحادثة قبل موته .

وتوفى الخليفة العاضد في ١٠ محرم سنة ٥٦٧ هـ من دون أن يعلم بهذا التغيير ، فجلس صلاح الدين للعرش واستولى على القصر ومافيه من كنوز وطرائف وأسكن أولاد العاضد وأعمامه في جناح منه .

هكذا سقطت الدولة الفاطمية بموت العاضد بعد أن حكمت مصر عسراً طويلاً (٣٥٨ هـ - ٥٦٧ هـ) وكان عصرها عصر يسر ورخاء وتسامح وتدين وثقافة ، وذلك لم تتمتع به مصر من قبل . وإن زوال الخلافة الفاطمية الشيعية على يد الأيوبيين السنيين الغلاة وإرجاع الخطبة للخليفة العباسى بعد أن قطعت الخطبة له في مصر وفي سائر الولايات الفاطمية الأخرى أكثر في قرنين . إن هذا كله يمكن تسميته بانتصار السنة على الشيعة .

تقدير الفاطميين :

مهما قيل في الدولة الفاطمية ، فإن الباحث في تاريخ هذه الدولة ، لا يسهه إلا أن يذكر ما أدته لمصر من جليل الخدمات وما خلفته من الآثار الباقية على الزمن ، تشهد بعصرها بالقوة والعظمة ولخلفائها الأول بالنفو ذو السلطان .

١ — انتقل الفاطميون إلى مصر ، فأصبحت مصر مقر خلافة لأول مرة في تاريخها ، بعد أن كانت مقر إمارة يحكمها ولاية .

٢ — تمتعت مصر الفاطمية ، بجميع مظاهر الاستقلال ، وصارت مستقلة استقلالاً تاماً .

٣ — امتدت دولة الفاطميين من المغرب ومصر ، إلى الشام والحجاز ، على حساب العباسيين ، واعترف بسلطان الفاطميين في شمال إفريقيا ، ومصر ، والشام ، وآسيا الصغرى ، وبسطوا نفوذهم على سواحل البحر الأحمر ، وعلى اليمن ، والموصل ، وبلاد ما وراء النهر ، ومكة ، والمدينة ، بل وخطب لهم على منابر بغداد عاصمة العباسيين .

٤ — بنى الفاطميون مدينة القاهرة عاصمة مصر الحالية .

٥ — نشط الفاطميون في بناء المساجد لنشر الدعوة الفاطمية : فبنوا الجامع الأزهر الذي حوله الخليفة العزيز إلى جامعة تعرف باسم الجامعة الأزهرية .

٦ — أسس الفاطميون دور الكتب لتشجيع البحوث في العقائد الإسماعيلية فأسسوا مكتبة القصر ودار الحكمة ودار العلم .

٧ — ازدهرت التجارة في عصر الفاطميين ، إذ اتصلوا ببلاد الهند والصين ومجنوبي أوربا ، كما كان للفاطميين شهرة عالمية في صناعة المنسوجات وصناعة المعادن وصناعة التماثيل والنقش على الخشب .

مصر الإسلامية بعد سقوط الفاطميين :

تأسست على أثر سقوط الفاطميين ، دولة الأيوبيين ، وكان مؤسسها صلاح الدين الأيوبي من أبرز شخصيات العالم الإسلامي . وتميز عهد الأيوبيين بالعمل الدائم في القضاء على الصليبيين ، ولما عجل سقوط الأيوبيين قيام النزاع على عرش السلطنة مما أدى في النهاية إلى سقوط الدولة الأيوبية التي حكمت مصر على نسق الدولتين الطولونية والإخشيدية . فقد كانت تحكم إسمياً من بغداد مقر الخلافة العباسية ، ولعب مؤسسها صلاح الدين نفس الدور الذي لعبه ابن طولون والإخشيد . واعتبرت مصر منذ قيام الدولة الأيوبية ، سلطنة يحكمها سلاطين بعد أن كانت دار إمارة ثم دار خلافة .

ويبدأ تاريخ دولة المماليك في مصر عقب سقوط الأيوبيين . وفي عهدها تمتعت مصر بكافة مظاهر الاستقلال ، وزال عهد التبعية الفعلية والإسمية عن مصر ، وأعادت إلى الأذهان عهد الفاطميين ، وأن حكام المماليك لقبوا بلقب سلاطين وليس بلقب خلفاء للخلفاء الفاطميين ، وصارت مصر في عهدهم مركز الخلافة بعد أن زالت الخلافة العباسية من بغداد ، وصارت مصر يحكمها في عهد المماليك : سلطان له الإشراف السياسي على شئون الدولة ، وخليفة له الإشراف الديني ومنه يستمد سلطان المماليك سلطته الشرعية .

فترات حكم الدول التي حكمت مصر الإسلامية :

أولاً : فترات كان يربط مصر بالخلافة ، الخطبة والجزية والسكة .

١ - عهد تبعية مصر للخلفاء الراشدين ٢٠ - ٤٠ هـ = ٦٤٠ -

٦٦١ م -

٢ - عهد تبعية مصر للخلفاء الأمويين ٤٠ - ١٣٢ هـ = ٦٦١ -

٧٥٠ م -

٣ - عهد تبعية مصر للخلفاء العباسيين ١٣٢ - ٢٥٤ هـ = ٧٥٠ -
 ٨٦٨ م و ٢٩٢ - ٣٢٣ هـ = ٩٠٥ - ٩٤٣ م .
 ثانياً : فترات كانت مصر مستقلة في الحكم ، مع التبعية لغيرها في الاسم
 فقط :

- ١ - زمن الطولونيين ٢٥٤ - ٢٩٢ هـ = ٨٦٨ - ٩٠٥ م .
- ٢ - زمن الإخشيديين ٢٢٣ - ٣٥٨ هـ = ٩٣٧ - ٩٦٩ م .
- ٣ - زمن الأيوبيين ٥٦٧ - ٦٤٨ هـ = ١١٧١ - ١٢٥٠ م .
 ثالثاً : فترات كانت فيها مصر مستقلة استقلالاً تاماً :
- ١ - زمن الفاطميين ٣٥٨ - ٥٦٧ هـ = ٩٦٩ - ١١٧١ م .
- ٢ - زمن المماليك ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ = ١٢٥٠ - ١٥١٧ م .

مصادر الكتاب^(١)

مرتبة حسب أحرف الهجاء بالنسبة لأسماء المؤلفين

أولا : مصادر عربية مخطوطة

- ابن حجر المسقلافي (٨٥٣ هـ = ١٤٤٠ م) شهاب الدين بن علي .
« رفع الإصر^(٢) عن قضاة مصر » .
(مخطوط بدار السكتب المصرية رقم ٢١١٥) .
- العيني : (٨٨٥ هـ = ١٤٥١ م) بدر الدر الدين محمود .
« عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان » ٢٤ جزءاً في ٦٠ مجلداً .
مخطوط بدار السكتب المصرية رقم ١٥٧٤ تاريخ .
- العمري : (٧٤٢ هـ = ١٤٤١ م) ابن فضل الله .
« مسائل الأَبصار في ممالك الأمصار » ٢٠ جزءاً .
مخطوط بدار السكتب المصرية رقم ٢٥٦٧ .
- أبو المحاسن : (٨٧٤ هـ = ١٤٩٦ م) جمال الدين سيف بن تغري بردى .
« النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » الجزء الرابع .
مخطوط بدار بدار السكتب المصرية رقم ١٣٤٣ .
- المقرئ : (٨٤٥ هـ = ١٤٤١ م) تقى الدين أحمد بن هلى .
« كتاب السلوك في معرفة دول الملوك » الجزء الثالث .
مخطوط بدار السكتب المصرية رقم ٢٣ فروسية .

(١) السنوات المثبتة أمام اسم كل مؤلف ، هي سنة وفاته مبينة بالهجرى والميلادى .

(٢) الإصر : الذنب .

- النورى^(١): (٧٣٢ = ١٣٣٢ م) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب .
 « نهاية الأرب في فنون الأدب » ، ٣٢ جزءا .
 صور شمسية بدار السكتب المصرية رقم ٥٤٠ معارف عامة ، مأخوذة من
 النسخة الخطية الموجودة بالمسكتبة الاهلية بباريس .
 ثانيا : مصادر عربية مطبوعة
 أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات في الإسلام (القاهرة ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٩ م)
 الإدريسي^(٢): (١١٨٨ = ١١٨٨ م) .
 « كتاب نزهة المشتاق في ذكر الأوصاف والآثار والبلدان » .
 ابن الأثير : (١٢٣٧ = ١٢٣٧ م) على بن أحمد بن أبي الكرم .
 الكامل في التاريخ ، ١٢ جزءا (بولاق سنة ٢٩٤ هـ)
 ابن الإخوة : « معالم القرية في أحكام الحسبة » ، (طبعة روبين ليفي Rubien
 Levy بلجنة ذكرى جب Gibb Memorial) .
 ابن إياس : (٩٣٠ = ١٥٢٣ م) أبو البركات محمد بن أحمد .
 « كتاب تاريخ مصر ، المعروف باسم « بدائع الزهور » ، ٣ أجزاء . (بولاق
 ١٣١١ - ١٣١٢ هـ) .
 ابن بطوطة : (٥٧٧٩ = ١٣٨٧ م) أبو عبد الله محمد بن أحمد .
 « تحفة النظر في غرائب الأوصاف ومعجائب الأسفار » ، جزآن (القاهرة
 ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٨ م) ترجمة إلى الفرنسية دي فريري Defremery
 وسانجينيقي Sanguinetti (باريس ١٣٥٣ - ١٣٥٨ هـ = ١٨٦٩ -
 ١٨٧٩ م) .

(١) اشترك النورى في حروب المماليك اشتراكا فعليا ، ووصف كثيرا من
 وقائعهم ، ويمتاز كتابه بالوثائق التي يثبت بها وجهة نظره فيما أدلى به من آراء .
 (٢) جاءت شهرة الإدريسي لاعن طريق تأليفه هذا السكتاب ، بل رسمه خريطة
 للعالم في العصر الذي عاش فيه .

- البكرى^(١): (٨٧٤ = ١٠٩٧ م) .
 « كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب » .
 البيروني^(٢): (٤٤٠ = ١٠٤٨ م) .
 « الآثار الباقية عن القرون الخالية » .
 ابن تيمية : « الحسبة في الإسلام أو وظيفة الحكومة الإسلامية ، جزء واحد
 ابن جبير : (١٦٤ = ١٢٨٧ م)
 « رحلة ابن جبير » ، (طبع في ليدن سنة ١٨٥٢ م) .
 جورجى زيدان : « تاريخ المدن الإسلامى ، خمسة أجزاء (القاهرة ١٩٠٢)
 حسن إبراهيم حسن : « عمرو بن العاص » ، (القاهرة ١٩٢٣ م) .
 « الفاطميون في مصر » ، عن الإنجليزية (المطبعة الأميرية ١٩٣٢ م) .
 « تاريخ الإسلام السياسى » - ثلاثة أجزاء (القاهرة ١٩٤٦) .
 « انتشار الإسلام بين المغول » ، (بحث مستخرج من مجلة الجامعة المصرية ،
 مايو سنة ١٩٣٣) .
 « عبيد الله المهدى » ، (القاهرة ١٩٤٧)
 « المعز لدين الله » ، (القاهرة ١٩٤٧)
 ابن خلدون : (٨٠٨ = ١٤٠٥ - ١٤٠٦ م) . عبد الرحمن محمد .
 « مقدمة ابن خلدون » ، (بيروت ١٩٠٠ م) .
 « المعبر وديوان المبتدأ والخبر » ، ٧ أجزاء (القاهرة ١٢٨٤ م) .
 ابن خلدون : (٦٨١ = ١٢٨١ م) . شمس الدين أبو العباس أحمد

(١) ينسب البكرى لابن بكر الصديق ، وبكتابه معلومات جلية الشأن عن شمال
 إفريقية وسكانها .
 (٢) البيروني من سكان بيرون Berun أحد أحياء جنوة ، وكان يطلق على الحي
 والبلدة اسم خوارزم .

- ابن إبراهيم بن أبي بكر الشافعي .
 • وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، جزءان .
 (بولاق ١٢٨٣ هـ ، والمطبعة الميمنية بمصر ١٢١٠ هـ) .
 ابن دقاق : (٥٧٠٩ = ١٤٠٦ - ١٤٠٧ م) إبراهيم بن محمد المصري .
 • الانتصار بواسطة عقد الأمصار ، جزء ٤ ، هـ القاهرة سنة ١٣٠٩ هـ =
 ١٨٠٣ م) نشره المستشرق فولرز Ed. Vollers
 راشد البرواي : الحالة الاقتصادية في عهد الفاطميين (القاهرة ١٩٤٨) .
 رشيد الدين فضل الله : (١٣١٨ هـ) • كتاب جامع التواريخ ، ترجمه إلى
 الفرنسية مسيو إتيين كترمير E. Quatremère . وانتهى رشيد الدين من
 تأليفه سنة ٧٠١ هـ (١٠٣١ م) .
 زكي محمد حسن :
 • الفن الإسلامي في مصر ، (القاهرة ١٩٣٥ م) .
 • مصر والحضارة الإسلامية ، الرسالة الخامسة عشر من سلسلة الثقافة
 العسكرية التي تصدرها إدارة الشؤون العامة في وزارة الحربية .
 • الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، (القاهرة ١٩٤٥) .
 ابن زولاق : (٣٧٨ هـ = ٩٩٧ م) .
 • العيون الدعج في حل دولة بني طنج ، (١)
 السبكي : (٧٧١ هـ = ١٣٧٠ م) تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب .
 • معبد النعم ومبيد الفقر ، (لندن سنة ١٩٠٨) طبعة داود ولحم موهر من
 David W Myhrman المدرس بكلية أبسلة الملوكانية .
 • طبقات الشافعية الكبرى ، ج ٥ ، ٦ (المطبعة الحسيفية بالقاهرة) .

(١) هو عبارة عن سيرة محمد بن طنج الإخشيد ، لكنه أمدنا في الوقت نفسه
 بمعلومات صحيحة عن تاريخ الصدر الأول من أيام الفاطميين إلى سنة ٣٨٦ هـ .

سعيد بن البطريق^(١): (٣٢٨ هـ = ٩٤٠ م).
 • التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ،
 السيوطي: (٩١١ هـ = ١٦٠٥ م). جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد
 • حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، (القاهرة سنة ١٨٨١ م)
 ترجمه إلى الإنجليزية الميجر هـ . س . جرت (كاسكتا سنة ١٨٨١ م)
 • تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائلين بأمر الآلة ، إدارة المطبعة الميزرية
 سنة ١٣٥١ هـ .

ابن شاكر: (٧٦٤ هـ = ١٣٦٣ م) فخر الدين محمد بن أحمد الكتبي
 • فوات الوفيات، (بولاق ١٢٩٩ م)
 أبو شامة: (٥٦٥ هـ = ١٢٦٧ - ١٢٥٨ م). عبد الرحمن بن اسماعيل بن
 ابراهيم بن عثمان شهاب الدين الملقب بأبي شامة شافعي من أهل دمشق .
 • كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ،
 Recueil des Historiens Croisades. Historiens Orientaux. t. VI.

وهناك طبعة أخرى في مجلدين (القاهرة ١٢٧٨ م) .
 أبو صالح الأرمي: (٥٦٥ هـ = ١٢٠٨ م).
 • تاريخ أبي صالح الأرمي، المعروف باسم «كنائس وأديرة مصر»^(٢)
 طبعة Evetta في أكسفورد سنة ١٨٩٥ م ، وقرن نصه العربي بترجمة
 إنجليزية .

(١) كان سعيد بن البطريق معروفا باسم أوتيوخا Eutychus عند الأفرانج
 وكان بطريقا للقبط، وكتب كثيرا عن تاريخ مصر، وأمدنا بمعلومات تعتبر أصلية ،
 إلا أن لغته يعييبها الركاكة وأتم كتابه رجل من أنطاكية يدعى يحيى بن سعيد المتوفى
 سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦ م) .
 (٢) فيه يكتب المؤلف تاريخ الكنائس والأديرة المصرية وأحياء النصارى
 وتاريخ القديسين والبطاركة ، وبعض أعمال الدولة الأيوبية وإقطاعاتها وخراجها .

- ابن طباطبا : ولد سنة ٦٦٠ هـ = ١٢٦١ م وأنتم كتابه سنة ٨٧٠١ هـ (ولا تعرف سنة وفاته) . محمد بن علي المعروف باسم الطقطقي .
- والفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، القاهرة ١٩١٣ م)
- ابن عبد الحكم^(١) : (٢٨٦ هـ) : د كتاب فتوح مصر والمغرب ، .
- عبد الرحمن زكي : د القاهرة ، (١٩٤٣) .
- عبد اللطيف البغدادي : (٦٢٩ هـ = ١٢٣١ م) د مختصر تاريخ مصر ، .
- علي ابراهيم حسن :
- د جواهر الصقلي ، (القاهرة ١٩٦٣ م) :
- د النظم الإسلامية ، ، بالاشتراك مع الدكتور حسن ابراهيم حسن (القاهرة ١٩٦٢ م) .
- د دراسات في تاريخ الممالك البحرية ، (القاهرة ١٩٦٣)
- د استخدام المصادر وطرق البحث في التاريخ الإسلامي والتاريخ المصري الوسيط ، (القاهرة ١٩٦٣)
- د التاريخ الاسلامي العام ، (القاهرة ١٩٦٣)
- د الجيش والبحرية في عصر المماليك ،
- الرسالة الثالثة والخمسون من سلسلة الثقافة العسكرية التي تصدرها إدارة الشؤون العامة في وزارة الحربية ، (القاهرة ، مارس ١٩٤٤)
- د آراء في تاريخ دولة المماليك البحرية ، .
- (بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب ، المجلد السابع ، ١٩٤٤) .
- د أخطر المجاعات في مصر ، ودعامة الفاطميين ، (بحثان في مجلة المكتبات عدد ا يونيه وديسمبر ١٩٤٦) .
- د دراسات مصادر التاريخ الإسلامي وحياة مؤلفيها ،
- بحث بمجلة كلية الآداب بجامعة بغداد — العدد الأول — حزيران ١٩٥٩

(١) كان ابن عبد الحكم معاصراً لأحمد بن طولون، ومات بعده بست سنوات وكتابه من أقدم الكتب التي كتبت عن تاريخ مصر الإسلامية .

على مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ، ٣٠ جزءاً في أربع مجلدات (بولاق ١٣٠٥ هـ) .

عمارة اليمن^(١) (١١٧٤ م = ١٦٥٩ هـ)

• كتاب التنسكت المصرية في اخبار الوزراء المصرية ،
• ديوان عمارة اليمن ، .

العمري : (١٣٤١ م = ١٧٤٢ هـ) شهاب الدين احمد بن فضل الله .
• مسالك الابصار في ممالك الامصار ، الجزء الاول .

نشره وعلق عليه المرحوم الأستاذ أحمد زكي ، (مطبعة دار الكتب المصرية
سنة ١٣٤٢ هـ = ١٩٢٤ م) .

• التعريف بالمصطلح الشريف ، (القاهرة سنة ١٣٠٢ هـ) .
عمر طوسون : كتاب مائة مصر من عهد الفراغة إلى الآن ،
(الاسكندرية سنة ١٩٤١)

ابن أبي الفضائل ، مفضل : النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ
ابن العميد ، .

• Texte Arabe Publiée et traduit en Francais par E. Blochet,
Palaogia Orientalis. t. Fasc. III, 1930

ابن القلانسي : (٥٥٥ = ١١٦٠ م) : أبو علي حمزة .
• ذيل تاريخ دمشق ، (بيروت سنة ١٩٠٨ م)

القلقشندي^(٢) : (٨٢١ = ١٤١٨ م) أبو العباس احمد .

• صبح الاعشى في صناعة الإنشا ، ١٤ جزءاً (القاهرة ١٩١٧ م) .
• ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المنعم ، (القاهرة ١٠٩٦ م) .

(١) تنحصر أهمية عمارة في معاصره للحوادث التي جرت لمصر في أواخر أيام
الفاطميين ، فكان كمشاهد عيان لهذه الحوادث .
(٢) ولد سنة ٨٥٦ هـ ببلدة قلقيشندة من أعمال مديرية القليوبية .

السكندى^(١) : (٨٣٥٠ = ٩٦١ م) أبو عمر محمد بن يوسف .
 وكتاب الولاية والقضاء ، به ذيل مأخوذ معظمه من كتاب دفع الإصر
 عن قضاء مصر ، لابن حجر العسقلاني ، طبعة رفن جست .

E. J. Y. Gibb Memorial Series, XIX. 1912, R. Guest

المواردى : (٨٤٥٠ = ١٥٠٧ م) أبو الحسن بن محمد بن حبيب المصرى
 والأحكام السلطانية ، (القاهرة ١٢٩٨ م)

أبو المحاسن (٨٧٤ = ١٨٩٦ م) جمال الدين يوسف بن تغرى بردى
 والنجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ١٠ أجزاء

(مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٥٠ - ١٣٥٧ = ١٩٣٠ - ١٩٤٠ م)
 والجزء الخامس : الفصل الأول والفصل الثانى (جزءان) - طبع جامعة

كليفورنيا بإشراف William Popper

محمد محمود هرنوس . تاريخ القضاء فى الإسلام ، ، القاهرة ١٣٥٢ = ١٩٣٤ م
 المقرئى^(٢) : ٨٤٥ = ١٤٤١ م ، تقى الدين أحمد بن على

المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، جزءان ، بولاق ١٢٧٠ هـ .
 نشر مسيو جاستون فيت جانباً من الجزء الأول ، طبعة بولاق ، فى أربعة
 مجلدات فى المعهد الفرنسى للعاديات الشرقية فى القاهرة ، (القاهرة ١٩١١ -
 ١٩٤٢ م)

(١) كان السكندى مصرى المولد والدار ، ولما توفى سنة ٨٣٥ هـ أتم كتاب ابن ذولاق
 المصرى الجنس المتوفى سنة ٣٨٧ هـ فى خلافة الحاكم بأمر الله ووصل فى كتابته إلى
 سنة ٣٨٦ هـ أى قبل وفاته بسنة ، وأتى بعدهما ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٣ هـ
 (١٣٤٩ م) ، وأتم كتاب القضاء وسماه دفع الإصر عن قضاء مصر ، ونشرت هذه
 الكتب الثلاث كلها مع بعض .

(٢) ولد تقى الدين المقرئى فى القاهرة سنة ٧٦٦ هـ ويكنى جده لآبيه المقرئى نسبة
 إلى مقرئ من خطاط بعلبك بسورية .

- كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، الجزء الأول ، الجزء الثاني إلى سنة ٥٧٤١ . نشرها وعلق عليها الدكتور محمد مصطفى زيادة (مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٤ ويناير ١٩٤٢)
- كتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة ، نشره وعلق عليه الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور جمال الدين الشيال (القاهرة ١٣٥٩ هـ = ١٩٤٠) (طبعة الجمعية الزراعية - القاهرة ١٩٤٣ م) .
- ابن منجب الصيرفي (٥٤٢ هـ) : الإشارة إلى من قال الوزارة ، (١) .
- ابن ميسر : (٦٧٧ هـ = ١٢٧٥ م) .
- تاريخ مصر ، طبعة هنري ماسيه . (القاهرة ١٩١٩) .
- ياقوت : (٢٢٦ هـ = ١٢٢٩ م) شهاب الدين أبو عبد الله الرومي .
- معجم البلدان ، ١٢ جزء . (القاهرة ١٣٢٣ هـ = ١٩٠٦ م) .

ثالثاً — مصادر أوروبية

- Allan : (J.)
The Cambridge Shorter History of India. (Cambridge, 1924).
- Arnold : (T. W.)
The Caliphate. (Oxford, 1924).
- Aitya (A. S.)
The Crusade in the Later Middle Ages (London, 1938.)
Egypt and Aragon. (Leipzig, 1938.) .
- Embassies and Diplomatic Correspondence between 1300 and 1330 A. D.

(١) لكتاباه قيمة خاصة في بحث تاريخ الفاطميين، لأن ابن تغلق ديوان الرسائل في عهد الخليفة الأمر الفاطمي من سنة ٤٣٥ هـ حتى ٣٥٦ هـ ، كما كان متصلاً بالبلط الملكي اتصالاً مباشراً .

Blochet (E)

Histoire d'Egypte de Makrizi (Paris, 1908). Extrait de la
Revue de l'Orient Latin. Tomes VIII—XI)

Browne, (E. G.)

Literary History of Persia from the Earliest times until Firdawsi.
(London, 1909).

**Literary History of Persia under Tartar Dominion. (1265-
1502 A.B) Vol. II. (Cambridge, 1920).**

**Literary History of Persia. Vol. III. the Tartar Dominion
1265—1502. (Cambridge, 1923).**

Budge (A. W.)

**A History of Ethiopia. Nubia and Abyssinia-2 Vols. Bulletin
of the School of Oriental Studies (B. SC. G.).**

(Cam. Med. Hist.) Cambridge Mediaeval History (Vol. IV).

Christensen. (A).

**L'Empire des Sassanides. (Copenhagen, 1907. Memoires de
l'Academie Royale des Sciences et des Lettres— Denmark).**

Colin. (G. S.) et E. Levi-provençal.

Un Manuel Hispanique de Hisba (paris, 1931).

Demombynes. (G)

La Syrie a l'Epoque des Mamelouks. (paris, 1922.)

De Sacy : (S).

**Bibliothèques Arabisant Francais (Le Caire) 1933.
(Mem. I. F A. Caire)**

D' Hosson (Baroun).

**Histoire des Mongols dequis Techinguiz Khan jusqu' a Timour
Bey ou Temerlan, vol. III.**

Dozy (R).

**Supplément aux Dictionnaire détaille des Noms de Vêtements
Chez les Arabes (Paris, 1845).**

(Enc. Isl.) Encylopaedia of Islam.

Devonshire (R. L.)

Rambles in Cairo, 1931.

Hassan H. 1.

Relations between Egypt and the Caliphate (Cairo, 1940)

Hautecoeur (L.) et Wiet (G).

Les Mosquées du Caire. 2. vols. (Le Caire, 1923).

Heyd : (W.)

**Histoire du Commerce au Moyen-Age. Vol. II.
(Leipzig, 1925).**

Hitti : (P. R.)

The History of the Arabs. (London, 1940).

- (J. A) Journal Asiatique.
 Howorth (Sir Heury)
 History of the Mongols Part III. vol IV. (London, 1876-1888).
 Kendrick. (A. F.)
 Catalogue of Muhammadan Textiles of the Medieval Period.
 (Victoria and Albert Museum)
 Lane—Poolé, (S.)
 The Art of the Saracens (London, 1888).
 The Story of Cairo. (London, 1982)
 History of Egypt in the Middle Ages (London 1900)
 The Muhammadan Dynasties (Paris 1905)
 Lavoix (H.)
 Catalogue de Monnaies Musulmanes de la Bebliothèque Nationale,
 Egypt et Syrie.
 Le Strange (G.)
 Palestine under the Moslems.
 Marcel (M J. J.)
 Histoire de L'Egypte depuis la Conquête des Arabes Jusqu'a
 L'Expédition Francaise. (Paris, 1848)
 Mayer (L.A)
 Saracenic Heraldry « Oxford, 1933 »
 Mercier
 La Chasse et les Sports chez Les Arabes. « Paris, 1927 »
 Michel «B»
 L'Organisation Financière de l'Egypt sous les Sultans Mamlouks
 d'après Qalqachandj. Le Caire, 1925.
 « Extrait de bulletin de l'institut d'Egypte, T.VII. Session
 1924—1925 ».
 Muir « W.E. »
 The Caliphate, its Rise, Decline and Fall « Oxford, 1902 ».
 Quatremère «E».
 Histoire de Sultans Mamlouks de l'Egypte 2. vols. Paris,
 1837—1844 »
 Toussoun : « Omar »
 La Géographie de l'Egypte a l'Epoque Arabe « Memoires tde
 la Société Royale de Géographie d'Egypte, t. VIII. 1. 2 parties—
 Le Caire 1926—1928 »
 Sanhoury. « A. A. »
 Le Califat « Paris, 1926 » .
 Van Berchem « Max »
 Materiaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum. « Le
 Caire, 1823 » Mem. I.F.A Caire.

Wiet : G.

Histoire de la Nation Egyptienne, L'Egypte Arabe, Paris, 1926.

Précis de l'Histoire d'Egypte. Le Caire 1933.

Les Biographies du Manhal Safi. Memoires Présentés à l'institut d'Egypte. Le Caire, 1932.

Trois Formules d'indépendance dans l'Egypte Medievale, ed. de la Revue du Caire, 1942.

Corpus Inscriptionum Arabicarum, Egypte, tome. II. Mem. de l'institut fr. d'archeologie, 1900.

كتب المؤلف

- ١ — انظم الاسلامية (الطبعة الثالثة ١٩٦٢)
بالاشتراك مع الدكتور حسن ابراهيم حسن مدير جامعة أسيوط السابق.
يبحث في نظام الخلافة ، والوزراء ، والكتابة ، والحجابه ، وسلطة الولاة ،
ودواوين الحكرمة ، والجيش ، والبحرية ، ومصارف بيت المال ، ونظام القضاء .
ترجمه مولاي عليم الله خان صاحب صديق إلى اللغة الأوردية ، لغة ،
بلاد الهند الرسمية ، ونشرته ندوة المصنفين في دلهي .
- ٢ — زهاء لهرن في التاريخ الاسلامى نهيب (الطبعة الثانية ١٩٦٣)
يبحث في تاريخ الفساد في الدولة العربية ، والدولة العباسية ، ومصر
الإسلامية الوسيطة ، ويتناول ملابس المرأة في الإسلام .
- ٣ — سيرة القاهرة (الطبعة الثانية ١٩٥١)
بالاشتراك مع الدكتور حسن ابراهيم حسن ، ترجم من الإنجليزية إلى
العربية عن Lane - Poole : The Story of Cairo
- ٤ — جوهر الصغلى (الطبعة الثانية ١٩٦٣)
يبحث في حياة جوهر قائد المعز لدين الله الفاطمى ، والدور الذى قام به
المعز في تاريخ مصر
- ٥ — مصر في العصور الوسطى (الطبعة الخامسة ١٩٦٣)
من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى
يبحث في تاريخ مصر من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى . ويشمل عهد
الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين في مصر ، وعهود دول : الطولونيين ،

والإخشيديين ، والفاطميين ، والأيوبيين ، والمماليك . وذلك فيما يتعلق : بالتاريخ
السياسي ، والعلاقات الخارجية ، ونظم الحكم ، والمنشآت ، والحالة الاقتصادية ،
والحالة الاجتماعية .

٦ - دراسات في تاريخ المماليك البحرية (الطبعة الثالثة ١٩٦٣)

يبحث في عزمات الدولة ، وسلطنة المماليك قبل الناصر محمد وفي عهده ،
وعهود أبنائه وحفدته ، والسياسة الخارجية ، ومبدأ الوراثة ، وألقاب
السلطان ، ووظائفه ، والبيوت السلطانية ومديريها ، والحرس السلطاني داخل
القصر وفي المراكب ، ونظام الخلافة العباسية في القاهرة ، ودواوين الحكومة
المملوكية ، وكبار الموظفين الإداريين ، والجيش المملوكي ، والقضاء والمظالم
والحسنة ، والحالة المالية والاقتصادية ، والحالة الاجتماعية .

٧ - استخدام المصادر وطرق البحث في التاريخ الإسلامي والتاريخ

المصري الوسيط (الطبعة الثانية ١٩٦٣)

يبحث في طرق البحث التاريخي ، ومصادر الآثار ، ودواوين الشعراء ،
ومصادر الرحالة والجغرافيين ، والمخطوطات ، ومصادر الأقدمين المنشورة .

٨ - التاريخ الإسلامي العام (الطبعة الثالثة ١٩٦٣)

يبحث في تاريخ الجاهلية ، والبعثة النبوية ، والخلفاء الراشدين ، والدولة
الأموية ، والعصر العباسي ، ونظم الحكم في الجاهلية والدولة العربية والدولة
العباسية .

الناشر : مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي بالقاهرة

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

The History of Gawhar Al Sikilli

COMMANDER OF THE FATIMITE CALIP AL MO'IZ

By
Dr. Aly Ibrahim Hassan
Senior Inspector of Humanities,
Ministry of Education, Cairo.

PUBLISHED BY
THE RENAISSANCE BOOKSHOP
9, ADLY STREET, CAIRO.



التمن ٣٥